روايات عبير

أنت حبي الوحيد

WWW.REWITY.COM
مرمورية

Cassie DE LUTRY

N° 634

روايات عبير

في منعطف طريق زراعي جمعت المصادفة بين شخصين مختلفين تماما: "نوما" الطبيب الشاب الذي ينتظره مستقبل مهني باهر و"صوفي" ابنة معالج القرية. منذ اللحظة الأولى أدركت "صوفي" الهوة التي تفصل بينها وبين من تحب.

وعلى الرغم من ذلك ستتخطى كل الصعاب وتعيش معه حياة سعيدة في مدن "المغرب".

ISBN 9953-443-12-2

9 789953 443126

ثمن النسخة

لبنان	٢٥٠٠ ل.	قطر	٨ ريال
سوريا	٧٥ ل.	مسقط	٧٥٠ بيسة
الأردن	١ دينار	مصر	٥ جنيه
السعودية	٨ ريال	المغرب	٢٠ درهم
الكويت	٧٥٠ فلس	ليبيا	١ دينار
الإمارات	٨ دراهم	تونس	٣ دينار
البحرين	٧٥٠ فلس	اليمن	٢٥٠ ريال
U.K.	2£		

شخصيات الرواية

الدكتور "نوما أرموري" : طبيب شاب وثري.

"صوفي ڤيرنون" : شابة جميلة يتعرف عليها دكتور "أرموري" في الطريق وهي ابنة معالج القرية.

"ڤيرنون" : معالج القرية.

"ناتالي أندريو" : خطيبة الدكتور "أرموري".

الغلاف الأمامي

عندما جاءت "ناتالي" عرفت "صوفي" أن المعركة ستكون بدون رحمة. من منهما ستستطيع أن تفوز في النهاية؟ هل ستستطيع "صوفي" بحنانها وحبها أن تحتفظ بزوجها؟

الفصل الأول

كان "نوما ارموري" يقود سيارته الرينو الزرقاء في فخر، إنها سيارة جديدة. لقد غادر "باريس" في نهاية النهار وهو الآن يقود على الطريق السريع الجنوبي.

لقد عبر كوبري "آفالون" وحسب اعتقاده أنه سيصل "بون" قبل الساعة الثانية بعد الظهر، حقا إنه يكسر الرقم القياسي في السرعة مما يملؤه بسعادة كبيرة، إنه يحب تحطيم الأرقام القياسية في كل شيء. إنه طبيب شاب أنهى فترة تدريبه حديثا، رياضي، يمارس رياضة الجولف، السباحة ويلعب كرة التنس كمحترف بالإضافة إلى كونه فارسا ماهرا. في "سانت ترويز" حيث تمتلك أسرته فيلا، كان قد اشترك في عدة سباقات للزوارق بمركبه الشراعي وحصد الجوائز. باختصار هو شاب طموح يريد أن يكون الأول في كل شيء وكان يتوصل دائما إلى ذلك.

ببعض الحنين عدل عن رغبته في قضاء الإجازة ووافق على أن يقضي جزءا من الإجازة في "آلوكس كورتون" ليأخذ مكان الدكتور "مارڤل" – صديق قديم لوالده– الذي أصيب بنزلة برد شديدة اضطرته لقضاء بضعة أسابيع في السرير.

شاب جميل، طويل القامة، بشرته سمراء؛ لممارسة الرياضة، قسمات وجهه مستقيمة ومفعمة بالرجولة، شعره أسود. كل ذلك كان له عظيم التأثير في الجنس الآخر خاصة في هذا الركن من "بورجوني" فإن قدومه لن يمر بدون احتفاء. أكثر من سيدة وجدت حجة لكي تذهب لتستشيره. ولكنه إذا كان لا يرفض امتداح جمال فتاة جميلة فإنه لم يذهب بعيدا قط في هذا الشأن مع أي من الممرضات أو المريضات.

لم يخلط بين حياته المهنية وحياته الخاصة، فقد كانت هذه هي القاعدة المتشددة التي يتبعها في سلوكه الذي يراقبه دائما: ذلك لأن مهنته كانت بالنسبة له عملا مقدسا.

الآن قد قشعت الرياح سحب الصباح، وسطعت الشمس في السماء الصافية. تنشر ضوءها الذهبي في كل مكان في الغابات، في الحقول

وحتى على النهر الصغير الذي يعكس ضوءها في قاع الوادي.

هذا الجو المشرق أدخل على نفسه التفاؤل. فكر في أن النقطة السوداء الوحيدة هي المنافسة الصريحة لهذا الطبيب الذي تحدثت عنه جريدة "بيان بوبليك" وجريدة مدينة "ديجون"، قالت إنه حكم عليه بغرامة كبيرة للممارسة غير الشرعية للطب. إن هناك عددا لا يستهان به من الجمهور لا يثق إلا به. لقد كان هناك الذين جاءوا إلى المحكمة للدفاع عنه. لا يهم ساكافح حتى أنتصر.

في الحياة كان متأكدا دائما أنه سيكسب وكان دائم الاعتماد على الحظ كأنه رفيق وفي يستطيع أن يطلب منه أي شيء.

فجأة أشار سهم إلى الخروج من الطريق السريع إلى "بون". أبطأ وسلك الطريق الأيمن ليصل إلى المدينة، سار بالسيارة حوالي خمس دقائق، مر تحت كوبري السكة الحديد، دار حول أسوار المدينة الجميلة. كاد يخطئ الطريق وفي النهاية عبر ضاحية "سان نيكول" لكن بدلا من أن يتبع الطريق المؤدي إلى "ديجون" انعطف مبكرا إلى اليسار ووجد نفسه على طريق "ساڤيني"، اضطر إلى تهدئة السرعة حتى يحول اتجاهه. أدرك أنه يستطيع العودة إلى "آلوكس كورتون" بسلوك طريق مختصر. كان ذلك الطريق جميلا جدا فهو يلف حول حدائق مزروعة بالكرم.

فجأة عند منعطف طارت جيب متعددة الألوان أمامه. لمح "نوما" دراجة بخارية ملقاة على الأرض. استقامت فتاة نحيلة شعرها أشقر وعيناها فاتحتان وبشرتها برنزية. التفتت نحوه وفي عينيها طلب النجدة.

توقف "نوما".

قال وهو بين شعورين، شعور بالسعادة لاكتشافه هذه الفتاة الجميلة، وشعوره بالغضب لأنه سيتأخر.

– هل يواجهك عطل؟

أجابت عابسة:

– أعتقد ذلك... أعتقد أنها السلسلة.

كان فمها دقيقا يكشف عن أسنان ناصعة البياض.

– لنر ذلك.

خرج من سيارته الرينو ومال بدوره نحو الدراجة البخارية وأخذ يفحصها في صمت مختلسا النظر إلى الفتاة الجميلة.

إنها رشيقة وقوامها متناسق، إنها فاتنة حقا. سألته:

– هل العطل خطير؟

– نعم أعتقد ذلك، يجب استشارة الميكانيكي.

قال ذلك في جدية كأنه تشخيص مهم لأحد مرضاه.

تمتمت:

– آه! هذا فظيع... كيف سأفعل ذلك؟

– إلى أين أنت ذاهبة؟

– إلى "آلوكس"، ولكن على الطرف الآخر من القرية وهو ما زال بعيدا.

في الضوء الساطع لشهر تموز (يوليو) كانا واقفين جنبا إلى جنب. كانت الحرارة حارقة تحت هذه الشمس الشديدة. لمعت بعض قطرات العرق على جبين "نوما" المنكفئ نحو الدراجة البخارية. لقد خلع سترته وفتح بعض أزرار قميصه كاشفا عن بشرته المسمرة وعضلاته القوية مما أثار اضطراب الفتاة التي تلاحقت أنفاسها. أحاطت بهما رائحة الخضرة وغمرتهما بلطف.

تأمل "نوما" لحظات هذا الوجه الصافي الذي تحيطه خصلات شقراء كأنها انعكاسات ذهبية. يا إلهي كم هي جميلة وجذابة!

لابد أن يكون له رد فعل تجاه هذا التأثير الذي يعتريه.

– سأساعدك... سأوصلك.

– لكن دراجتي؟ لا أستطيع أن أتركها هنا..

– بالتأكيد... سيارتي واسعة، سنحاول أن نضعها فيها.

توصل إلى أن يضعها في السيارة.

– تفضلي، اصعدي.

جلست إلى يمين القائد. وعقدت يديها فوق جيبها الملون. لاحظ

أصابعها الرقيقة، وأظافرها الملونة التي تظهر كم تعتني بها مثل "ناتالي"!

لماذا يقارن الآن "ناتالي" بهذه الفتاة البسيطة؟ سار بالسيارة لحظات في صمت ثم سألت:

– ما الذي يجذبك في إقليمنا؟ يبدو أنك سائح.

– تعتقدين أنني سائح إذن؟

– شيء طبيعي، إن سيارتك تحمل رقم ٧٥ وهذا يعني أنك تسكن في "باريس".

أخذ يضحك:

– أرى أنك قوية الملاحظة... يا آنسة...؟

– "صوفي"... اسمي "صوفي".

– إذن دعيني أدعوك "صوفي"، أعتقد أنك لا تمانعين في أن أدعوك باسمك. لقد خيبت ظنك، لم آت هنا على أني سائح. لقد جئت إلى "آلوكس" كطبيب لأكون مكان الدكتور "مارڤل".

مر ظل عابر بعينيها الزرقاوين. قالت:

– آه... أنت طبيب؟ هل تعرف أن لديك منافسا هو الدكتور "كوربيه"؟

– هذا من الممكن... لكني لا أعتقد أنني سأفتقد المرضى.

ابتسمت ابتسامة ساحرة.

– إذن أنت قادر على دعاء الشيطان حتى يرسل إلينا وباء صغيرا.

قهقه "نوما":

– هل تعتقدين يا "صوفي" أنني "ميكيافيللي" إلى هذا الحد؟

أومأت برأسها:

– لست أدري مطلقا.

– أخشى أن أفقد شجاعتي... لكني سمعتهم يقولون إن هناك في إقليمكم منافسا آخر غير الدكتور "كوربيه"... تكلمت الصحف عن معالج لا يسكن بعيدا عن هنا، وهو قادر على أن يفعل المعجزات... ربما تعرفينه؟

www.rewity.com

نظر إليها متسائلا، ودهش عندما رأى جبينها الأملس يتجعد، ومر بعينيها الصافيتين غضب.

أومأت برأسها في عصبية:

– لا... لا.

لقد تغير صوتها وتحول إلى البرود بشكل يثير الدهشة واستطردت:

– إني لا أعرفه، وعلى أية حال فإني بصحة جيدة ولا تنقصني خدمات الأطباء... ولا غيرهم.

ساد صمت حرج بين الاثنين. لكي يزيل هذا التوتر، ابتسم "نوما":

– يبدو أنك لا تحبين مهنتي... هل أستطيع أن أعرف السبب؟

في إشارة تحد لم تقيم سحرها التفتت إلى "نوما":

– ربما لا يكون هناك سبب، ببساطة كل فرد له الحق في تقدير أو عدم تقدير مهنة ما. ربما يفضل المرء المحاسبين على الراقصين، والمعالجين على المنومين المغناطيسيين.

رفع الدكتور "نوما" حاجبيه في دهشة من هذا الهجوم الذي لم يتوقعه. شعر بأن مزاجه يميل إلى السخرية.

– إذا كنت أستطيع التنبؤ بنفورك من هذه المهنة لاخترت مهنة أخرى قبل لقائي بك.

كانت نبرته شديدة السخرية مما أصاب "صوفي" بقشعريرة. تبع تلك الكلمات الساخرة لحظة صمت طويلة بينما استمرت السيارة الرينو في طريقها بين منعطف ومفترق طرق بين مزارع العنب حاملة شخصين– إلى حد ما– عدوين دون معرفة السبب.

بقيا صامتين حتى "آلوكس" التي بدت منازلها المصطفة على جانب الرابية.

سأل "نوما" بنبرة مفعمة بالأدب:

– هل تريدين أن أنزلك عند باب بيتك؟

رفعت يدها في حرارة:

– لا، شكرا... أنزلني أمام الكنيسة. سيكون ذلك جيدا، بيتي على بعد خطوتين من هناك.

توقفت بعد حوالي خمسين مترا.

– أشكرك كثيرا يا دكتور لأنك أوصلتني إلى هنا. لقد اختصرت لي طريقا طويلا...

– هذا أمر طبيعي يا "صوفي"... وأبسط درجات الذوق.

نزل وأخرج الدراجة البخارية.

– ها هي دراجتك.

تلامست يداهما. استنشق عطر الورد المنبعث من شعرها. ونظر إليها "نوما" وهي تبتعد دافعة دراجتها وتختفي في زاوية أحد الشوارع. فكر:

– يالها من فتاة غريبة، ماذا في رأسها؟ على أية حال فهي ساحرة وجذابة جدا.

لم يحضر إليه خلال الأيام الثمانية التي تلت استقراره في المدينة سوى ثلاثة مرضى. اضطر إلى أن يعترف بأن جزءا كبيرا من الجمهور قد اتخذ موقفا معاديا ضد الأطباء بعد قضية المعالج المشهور.

كان متأكدا أنهم ليسوا غاضبين منه شخصيا لأنهم لا يعرفونه، ولكن في أعين سكان المنطقة كان يبدو مسؤولا بعض الشيء– بما أنه طبيب– عما حدث لرجل يحبونه ويقدرونه كثيرا.

كان منزل الدكتور "مارڤل" واسعا. وبه كثير من الحجرات المغلقة التي تتصاعد منها رائحة النفتالين مما يعطي انطباعا بحزن خفي.

كان "نوما" يجد نفسه وحيدا بعد انتهاء زيارته الطبية مع مؤنسته الوحيدة "جرمين"، سيدة لا يمكن معرفة سنها، كانت في خدمة الدكتور "مارڤل" تمضي وقتها في تلميع النحاس أو إعداد أطباق الطعام وهي أطباق ممتازة تتميز بها هذه المنطقة.

كان يكره مشاهدة التليفزيون مما كان يجعل أمسياته مملة. مما خفف هذا الملل أنه قد عثر في مكتبة الدكتور "مارڤل" على مؤلفات "أناتول فرانس" و"ڤيرلان" وهما كاتبان لا يمل قراءة أعمالهما.

فكر في "صوفي" وتمنى أن يراها من جديد، ولكنها بدت وكأنها تبخرت، ولم يجرؤ على سؤال بعض السكان– الذين تبادل معهم

الحديث- عنها. إن المدن الصغيرة تستنتج بسهولة استنتاجات خيالية عندما يبدو أن رجلا مهتما بفتاة جميلة. لم يكن لديه حتى وسيلة للاتصال بـ"ناتالي" ابنة رئيسه وخطيبته، ذلك لأنها كانت في رحلة بحرية في "الكاريبي".

كان يذهب بشكل منتظم إلى "بون" لشراء الجرائد ويزور بعض الزملاء الذين شعروا بالغيرة من هذا الدكتور الشاب القادم إليهم حديثا أكثر من شعورهم بالعطف تجاهه.

ذات مرة دعاه للعشاء دكتور أمراض نساء له أسرة كبيرة من سبعة أطفال. زوجته سيدة شاحبة قضت أغلب وقتها أثناء العشاء في توزيع الصفعات على الأبناء، والذين كان أكبرهم في الرابعة عشرة من عمره وهو أكثرهم فظاعة.

باختصار قرر "نوما" تفضيل العزلة عندما غادر هذا المنزل الصاخب.

كان الحياة الراكدة والرغدة الهادئة لهذه الضاحية قد انطبعت عليه، ولكن ذات مساء تدخل القدر في صورة مكالمة تليفونية. كان عائدا من مزرعة بالقرب من "بليني سور أوش" حيث عالج بنجاح أحد المرضى. جلس "نوما" يتصفح مجلة طبية في ضوء أباچورة، استدعى ذهنه من جديد صورة تلك الفتاة الجميلة التي قابلها مصادفة يوم مجيئه، قال في نفسه:

"لم ترسل لي "ناتالي" سوى كارت بتيم منذ ثلاثة أسابيع. إنها تلهو مع أصدقائها ولا تفكر في مطلقا... إنها تتجاهل احتياجي لها، لن أستطيع أن أواصل حياتي وكأنني راهب".

أحد أصدقائه يعيش في "ديجون" حيث يملك عيادة ويعيش حياة الأعزب غير المبالي. قرر أن يذهب ليراه يوم السبت القادم، وفي هذه المدينة الواسعة دون الخوف من الفضيحة سيجد من تزيح عنه شعوره بالوحدة وتمنعه من الغرق في بئر الملل.

في اللحظة التي هم فيها بإمساك سماعة التليفون ليتصل بالدكتور "چان داميان" دق جرس التليفون. أمسك السماعة:

- آلو... هل هذا الدكتور "نوما أرموري"؟

كان ذلك صوت رجل لم يسمعه من قبل قط.

- نعم.

- هل أستطيع أن أحدثه؟

- هذا أنا.

- أرجو المعذرة يا دكتور أنا الكاهن "روفيت"، لم تسعدني مقابلتك بعد.

- هل أنت كاهن "كورجو لوان"؟

- تماما. دكتور يجب أن أراك على الفور هل أستطيع أن آتي إليك!

- بالتأكيد إني في انتظارك يا سيدي الكاهن.

- إذن أراك بعد قليل.

وضع "نوما" السماعة مفكرا لماذا يتكبد هذا الكاهن الذي يقال عنه إنه كبير في السن عناء الحضور إليه في هذا الوقت المتأخر؟ بدون شك هناك مريض أو ميت يحتاج إلى مساعدته.

مضت ربع ساعة بالكاد، ودق جرس الباب، ظهر عند عتبة الباب رجل عجوز كبير الجثة مازال يحتفظ بقوته، لقد جاء بالدراجة. كان الممر مظلما. لقد انقطع التيار الكهربائي ولن يعود إلا في اليوم التالي. قابله "نوما" وفي يده شمعة. في الضوء المهتز، بدا وجه الكاهن طيبا وذكيا.

في المكتب أشار "نوما" للكاهن بالجلوس في أحد المقاعد الأكثر راحة. وبدون مقدمات صرح الكاهن:

- أنت دكتور شاب، أعتقد أنك لم يتجمد قلبك بعد بفعل الأفكار المسبقة والغيرة.

بداية مثيرة للتعجب. كان "نوما" يلهو بقصاصة ورق، عندئذ رفع بصره في دهشة نحو الكاهن. بدا الضيق والإحراج في نبرة الكاهن.

أجاب "نوما" بجفاف:

- أعتقد أنني مازلت حرا في قراراتي.

خشي "نوما" أن يعتقد أن أفعاله غير مستقلة. هو الذي يلجأ بعض الأحيان إلى وسائل ثورية لمحاولة إنقاذ المريض.

بقي زائره صامتا وكان هذه الإجابة قد أصابته بالشلل.

قال "نوما" بصوت أكثر هدوءا:

– إني أسمعك يا سيدي الكاهن.

كان الظلام يغلف المنزل حولهما مما أضفى على الأشياء سكونا غير متناه.

هب نسيم عطر من الحديقة عبر النافذة المفتوحة.

بعد برهة تردد قصيرة. قال الكاهن:

– ها هو... لقد جئت لكي أطلب منك أن تعالج في أسرع وقت ممكن المعالج "لوسيان ڤيرنون"، الذي سمعت عنه بدون شك. لقد جرح بشكل خطير عندما سقط في فناء منزله.

– هل هو من طلب منك أن تستدعيني!

خطا "نوما" بعض الخطوات نحو النافذة.

– لا، ليس من طلبك يا دكتور. إنه فاقد الوعي. إنها ابنته التي جاءت إليّ باكية وترجتني أن أفعل شيئا من أجل والدها الذي يحتضر وقد يموت ما لم يجد مساعدة... لقد اتصلت بالدكتور "فيڤر" الذي تهرب منها.

صاح "نوما" متأثرا:

– هذا لا يصدق.

– صحيح. لكنك تعرف الأطباء في هذه المنطقة الذين يعتبرون "لوسيان ڤيرنون" المسكين مشعوذا.

أضاف بعد توقف قصير:

– اتصلت الفتاة المسكينة بأحد الجراحين في "بون" ولكنه لم يكن موجودا وخشيت أن يرفضوا استقبال هذا المريض المشهور في المستشفى. توجهت إليّ كأنني الأمل الأخير وتوسلت إليّ أن أساعدها. حدثتني عنك لكنها قالت لي إنها لا تستطيع أن تزعجك وبما أني أعرف أنك فوق كل هذه التصرفات المخجلة قررت أن آتي إليك.

– لقد أصبت يا سيدي الكاهن.

أخذ "نوما" عدته التي كانت دائما جاهزة في مكان قريب وقال لزائره.

– قدني إلى هذا الرجل.

الفصل الثاني

منذ ساعتين و"صوفي" تشعر كأنها تعيش كابوسا منذ لحظة عودتها من "بون"، حيث كانت تشتري بعض الملابس، وأخبرتها مربيتها "ليوني" بالحادثة التي أصابت والدها.

كانت تشعر كأنها سجينة في حجرة والدها. تتخبط في الحوائط كأنها عصفور فقد صوابه يبحث عن مخرج من القفص. تشبثت حتى لا تسقط، ووقفت عند السرير تنظر إلى هذا الوجه الهادئ الذي بدا غارقا في الموت.

أزاحت بتلقائية الخصلة الشقراء عن خدها، وشعرت تحت أصابعها بعلامات الدموع، تنبهت إلى أنها تبكي.

لماذا تسلق والدها بدون حرص سطح المنزل ليتحقق من عمل مدخنة المدفأة؟ لقد قطع شريان معصمه عندما فقد توازنه. لقد أوقف النزيف مؤقتا بربط الجرح...

لم يضئ ضوء الأباجورة سوى جزء محدود من الحجرة. ابتعدت عن السرير خشية أن تضايق الإضاءة الجريح. في الظلام بدا وجه "ڤيرنون" شديد الشحوب. انقبض صدر "صوفي" بشدة. لقد نسيت في انزعاجها أن تضع سترة على فستانها الخفيف. يبدو أنها أصيبت بالبرد. إنها لا تفكر في نفسها، تذكرت حنان أبيها وصبره اللذين أحاطها بهما والدها منذ وفاة والدتها. منذ ذلك الوقت والشقة والتفاهم التام يجمعهما في هذه الحياة.

كم كان يحبها والدها! إنها تستعيد منظره عندما كان يزيح شعره الرمادي إلى الوراء في تعب ثم يرفع عينيه تجاهها. وعندئذ يبدو كأنه صغر عشر سنوات لأنه كان سعيدا لرؤيتها.

اهتزت باكية وكتمت تأوهها تاركة نفسها لتسقط بدون قوة في مقعدها. كل شيء حولها في الحجرة منظم ويحمل آثار المأساة. في الضوء المهتز للمصباح كانت هناك فوط ملقاة على المقاعد وبعض الملابس مفترشة على الأرض.

كان "ڤيرنون" مازال فاقدا الوعي يتأوه ويرتعش قالت "ليوني":

- لقد فعلت ما بوسعي ولكن الشريان لا يشفى بمفرده.

أنصتت "صوفي" إلى صوت القادم. آه! ربما لن يأتي الدكتور ربما يرفض هو أيضا مثل زملائه أن يعالج منافسا له.

سارت في عصبية إلى النافذة. عقدت يديها في دعاء. في داخلها كانت تلوم نفسها على أنها لم تكن لطيفة تجاه "نوما" في لقائهما. لكنها تصرفت على هذا النحو كرد فعل طبيعي للدفاع. إنها لم تشعر قط بمثل هذا الاضطراب في وجود أي رجل. إنه لم يكن جميلا فقط ولكنه شديد الجاذبية، جسمه الرياضي الذي يتحرك في رشاقة الفهد قد حرك بداخلها عاطفة لا تعرف وصفها. لقد فكرت "كم سيكون جميلا أن تشعر بهاتين الذراعين القويتين تحيطان كتفيها".

لقد أنقذها "نوما" بلطف في الطريق. لماذا بدلا من أن تشكره، أشعرته بالعداء؟! وهذا غير منطقي أن تخاطب رجلا لا تعرفه بهذه الطريقة. ربما لو كان أقل جاذبية لما تصرفت على هذا النحو، وهذا هو سبب عدم محاولتها رؤية "نوما" منذ أول لقاء لهما عند مجيئه إلى "آلوكس". لقد كان ذلك حماقة مؤكدة ستدفع ثمنها لأنه من المؤكد قد عرف من تكون- كل شيء يعرف في المدن الصغيرة- وربما أراد أن يعاقبها بعدم مجيئه الآن.

في هذه اللحظة رأت والدها يفتح عينيه. دق قلبها بقوة ومالت حابسة أنفاسها نحو هذا الوجه الشاحب المسكين. فجأة في نفس اللحظة، خرق الصمت صوت محرك. توقفت سيارة أمام الباب. جرت "صوفي" نحو الباب.

صاحت:

- "ليوني"... "ليوني" أنا متأكدة أنه الدكتور "أرموري" خذي المصباح وأرشديه حتى يعبر الفناء.

دخل "نوما" إلى الحجرة. ولم ير "صوفي" ألتي ابتعدت عن المصباح. اقترب من السرير وفحص الجريح ورفع رأسه:

- نحتاج إلى سيارة إسعاف تنقله إلى المستشفى، سآخذ على عاتقي

إدخاله. يجب التصرف بسرعة. هل يوجد أحد من العائلة هنا؟

نظر حوله في الحجرة تقدمت "صوفي" وبصوت مهتز همست:

– أنا ابنته.

التفت "نوما" واستطاع أن يرى في الظلام مصدر الصوت فزع. هذه هي الفتاة المجهولة التي قابلها على الطريق!

هذه المتكبرة الصغيرة التي سخرت من مهنته. لقد فسر كل شيء! غير مبال كأنه يتحدث إلى شخص لا يعرفه.

– يا آنستي يجب التصرف بسرعة. والدك في خطر لأنه فقد الكثير من الدم.

تمتمت:

– أوه... يا إلهي.

دون أن يسمعها استطرد:

– ليس لدي الوقت لانتظار مجيء سيارة الإسعاف.

وجه خطابه لـ"ليوني" التي كانت قد ابتعدت بضع خطوات:

– هل يوجد رجال يستطيعون أن يساعدوني على نقل السيد "ڤيرنون" إلى سيارتي؟ سأوصله بنفسي إلى المستشفى.

– البستاني جارنا...

صاحت "صوفي" وهي تجري:

– سأذهب لأحضره.

بعد بضع دقائق كان السيد "ڤيرنون" في السيارة و"صوفي" تقترب من "نوما".

– هل تسمح لي أن آتي معكم يا دكتور؟ لقد حصلت على تدريب في الصليب الأحمر.

– لا أجد مانعا... اصعدي.

كان صوته جافا. سلكت السيارة طريقها إلى "بون".

وبعد ذلك عندما فكرت "صوفي" في تلك اللحظات الماضية التي قضتها في المستشفى، في هذه الحجرة البيضاء الحزينة والحائط العاري سوى من الساعة التي تابعت فيها ساعة بساعة كفاح الدكتور "نوما"

لينقذ والدها من الموت أدركت بحق معنى كلمة معجزة. إن ما حققه "نوما" كان معجزة حقيقية.

لقد بقيت في حجرة العمليات أثناء إجراء العملية. عندما كانت الممرضة قد ذهبت لتعتني بمريض آخر في الفجر، وقفت بجانبه وهو يحاول عملية نقل دماء أخرى. تابعت "صوفي" في قلق وإعجاب مهارته وقدرته وتفانيه.

وأخيرا عندما أشرق الصباح نطق "نوما" – بابتسامة – الكلمات التي لم تجرؤ على أن تاملها وهو ينظر إليها للمرة الأولى منذ مجيئهم إلى المستشفى:

– لقد نجا والدك الآن أستطيع أن أؤكد لك ذلك.

همست في تأثر:

– كل ذلك يعود إلى تفانيك ومهارتك.

أجابها مبتسما:

– إذا كنا تأخرنا ساعة واحدة لما كانت هناك أي فرصة.

تقدمت بضع خطوات نحوه.

– إني مضطربة تماما يا دكتور حتى إنني لم أعبر لك بعد عما تستحق من شكر وعرفان... لكن.

أومأ بيده:

– لا، لا تقولي شيئا... لم أفعل سوى واجبي كطبيب وليس عليك أن تشكريني.

أجابت:

– لقد فعلت أكثر من واجبك. لقد خاطبت زملاءك ولم يهتم أحد منهم.

– لنقل إن القدر لم يشأ أن يكون أي منهم متفرغا.

رغما عنه وجد نفسه يدافع عن زملائه وأضاف بجفاف:

– ليس لديك الحق في أن تتحدثي على هذا النحو.

شعرت بعدائه المفاجئ. إنه لا يسمح بمهاجمة زملائه؛ لذا لم ترد أن تصطدم به، قالت:

www.rewity.com

– إني متأثرة تماما بتفانيك في عملك بقدر ما أنت تحتفظ بذكرى سيئة عني.

حملق إليها في حدة كأنه نمر يهاجم ويستعد للوثب على فريسته. شعرت برعشة تتسلل إلى جسدها. شعرت في هذه اللحظة بأنها تقف أمامه بدون دفاع كأنها عصفور سيفترسه حيوان متوحش. قال بصوت بارد:

– آنسة "ڤيرنون" كنت سأتصرف بنفس الطريقة مع ألد أعدائي... لا يجب أن تشعري بالعرفان تجاهي.

هل نسي اسمها الذي ناداها به "صوفي"؟ لا، ولكنه أراد أن يفهمها بأنها ليست بالنسبة له سوى واحدة غريبة. وعندما توردت، أدرك أنه سيصل إلى قمة القسوة باستكمال عبارته بالكلمات الآتية.

– لا أعتقد أنني سأكون قادرا على ممارسة عملي إذا تأثرت بهذه الاعتبارات.

الجندي يقول: "إني أخدم" والطبيب يقول: "أنا أعالج" إنه قول مأثور لا يمكن أن نبتعد عنه.

صمت قصير تبع هذا التصريح. اقترب من النافذة. بدأت العصافير تغرد في الحديقة التي تحيط بالمستشفى، والحشائش تلمع تحت الندى وأشعة الشمس المشرقة. في خجل اقتربت بدورها من النافذة.

– متى سيستطيع أبي العودة إلى المنزل؟

التفت. لقد تأثر بهذه الليلة التي عاشها في قلق وسهر مما أضفى على وجهه ظلال التعب وقد زاده ذلك سحرا.

عندما لم يجبها رددت سؤالها. أجاب:

– سيستطيع والدك مغادرة المستشفى خلال أربعة أو خمسة أيام.

قالت:

– لن يكون ذلك طويلا ولكن هل ستقبل يا دكتور أن تتابع فترة نقاهته؟

– بالتأكيد.

– شكرا كثيرا.

أكد "نوما" الذي شعر فجأة بأن عطفا كبيرا قد تملكه تجاه هذه الفتاة الجميلة التي شعر بقلقها.

– هذا طبيعي جدا.

تمتمت:

– إني مدينة لك بالعرفان.

– إن والدك يستريح الآن، لندعه ينام. سأعود في نهاية اليوم لزيارته.

قادته حتى الباب. عاودها نفس الألم الذي شعرت به من قبل ولكن بأكثر شدة. وضعت بطريقة عفوية يدها على رقبتها. رأى "نوما" حركتها:

– ماذا بك؟

– لابد أنني قد أصبت بالبرد... لا شيء.

أمسك معصمها:

– لكنك مصابة بالحمى.

– سآخذ قرصا.

نظر إليها قاطبا حاجبيه:

– أخشى أن تكوني قد أصبت بذبحة. يجب أن نوقفها. هل تستطيعين أن تمري عليّ في العيادة بعد الظهر؟ لكن دعيني أقول لك إنك كنت غير حريصة عندما قضيت الليل بهذا الثوب الخفيف.

الآن هي بمفردها وتشعر بعاطفة غريبة. بالتأكيد لقد أنقذ "أرموري" حياة والدها ولكن هل كانت ستشعر بنفس العرفان تجاه أي طبيب آخر؟ اعترفت بكل صراحة أنه لا. إنها لا تشعر بهذا الاضطراب سوى في وجوده.

إنه شعور معقد لا تستطيع وصفه. قسمات وجهه الحادة المفعمة بالرجولة ونظراته الباردة كأنها جليد عندما تتجه إليها توقظ بداخلها مشاعر كانت تجهلها.

لدهشتها وجدت نفسها تذهب في الثانية تماما إلى الطبيب. كان "نوما" ينتظرها عند عتبة الباب. دخلت الحجرة الصغيرة. لاحظت أنه استبدل بملابس الأمس بنطلون چينز أزرق وقميص وردي مما أعطاه

مظهرا رياضيا حقيقيا.

– لنر ماذا في حلقك... افتحي فمك.

مال نحوها وتقابلت عيونهما. رأى ضوءا يرقص في عمق عينيها.

– إنها ليست ذبحة بسيطة... لابد أنك قد أصبت بالتهاب في الشعب الهوائية. دعيني أكشف على صدرك.

شعرت ببعض الحرج:

– هل هذا ضروري؟

نظر إليها في دهشة.

– هذا شيء طبيعي أن أسمع من أين تأتي هذه الحشرجة.

وعندما تمددت على طاولة الفحص، مال نحوها.

– استنشقي بعمق.

استنشقت عطره الرجولي النفاذ وشعرت برعشة تسري في جسدها، أغلقت عينيها وكأنها مخدرة. وعندما انتهى من الفحص بقيت بضع دقائق كأنها مثبتة في مكانها.

– هيا... الأمر ليس خطيرا. مع العلاج بالمضاد الحيوي ستشفين خلال يومين.

فزعت. لقد انتزعها فجاة من حلمها. ركبت "صوفي" دراجتها البخارية وسلكت طريق المستشفى. بينما كانت تعبر طريق القرية المشمس، شعرت بضيق لا تعرف له سببا.

قالت في نفسها: "لقد رأى اضطرابي، لن أسامح نفسي على عدم قدرتي على السيطرة على مشاعري..." فكرت أيضا في أنه شجاع لاهتمامه بوالدها بهذا التفاني.

"إن ذلك سيسبب له المضايقات بالتأكيد. سيقف كل الأطباء ضده".

هذا الهاجس لم يتأخر عن الحدوث بعد يومين تماما.

الفصل الثالث

في القاعة الكبيرة البيضاء تحركت الممرضات بأغطية رؤوسهن وكأنهن عصافير صامتة.

تسللت الشمس التي تميل للغروب عبر الباب الكبير المفتوح على الحديقة. كان "نوما" سعيدا بالجراحة التي أجراها في الليل كما كان سعيدا بحالة المريض التي وجد أنها جيدة. ظهر أمامه فجاة، رجل بدين يبدو على وجهه علامات الغضب. نظر إلى الدكتور "نوما" من خلف نظارته الطبية وقد تحولت عيناه إلى نقطتين سوداوين من الانفعال.

ازدرد ريقه قبل أن يقول:

– أريد أن أكلمك يا دكتور "أرموري".. لأنك أنت دكتور "أرموري" القادم من "باريس" إلى "آلوكس" لتحل محل الدكتور "مارڤل"؟

– تماما.

لم يفهم "نوما" هذا التدخل، قال:

– لكن من أنت؟

– "مارسيل مولارينو"، واحد من أكبر ملاك مزارع العنب في الساحل.. ومساهم بمبلغ كبير في إنشاء هذا المستشفى الجديد.

– إذن... ماذا تريد؟

– هل تسمح بالدخول إلى هذا المكتب الصغير الذي وضع في خدمة أعضاء مجلس الإدارة؛ لأن ما سأقوله لك مهم جدا.

أثناء حديثه أشار الرجل البدين إلى باب جهة اليمين. محتارا تبعه "نوما" إلى حجرة حوائطها عارية بينما تتوسطها طاولة كبيرة. جلس الرجل إلى الطاولة وأشار إلى "أرموري" للجلوس في مواجهته.

– دكتور، لقد وصلني اليوم خبر غير معقول، وأعترف لك بانني وجدت صعوبة في تصديقه.

سأل "نوما":

– ما هو هذا الخبر؟

لكن دون أن يسمع سؤاله استطرد الرجل:

– لقد أكدت لي رئيسة الممرضات. باختصار أنت لم تعالج فقط واحدا من أخطر المخربين لمهنة الطب ولكنك عالجت رجلا حكم عليه علانية، كما أنك أعطيت نفسك الحق في أن تجري له جراحة هنا في المستشفى.

خبط بقبضة يده على الطاولة ليعطي لكلماته القوة. رد عليه "نوما" في هدوء:

– باسم من تتحدث؟ باسم مدير المنشأة؟

– لا إن المدير في إجازة.

– هل تعتقد أنه يوافق على كلامك؟

– هذه مسألة ثانوية... لقد أعطيت الملايين هبة لإنشاء هذا المستشفى، وأعتقد أن لي الحق في إبداء رأيي. هذا الـ"ڤيرنون" كان يستطيع أن يعالج في مكان آخر.

قال "نوما" بصوت حاد:

– كما أعرف، لا توجد هنا مستشفيات خاصة.

– أنت جديد في البلد، ولكن على الرغم من ذلك، لا أعتقد أنك تجهل الضرر الكبير الذي يسببه هذا الـ"ڤيرنون" للطب.

انفعل "نوما":

– أعرف أن الأطباء يعتبرونه منافسا خطيرا. مثل الدكتور "سولوميداس" الذي اختفى؛ لأن "ڤيرنون" قد أنقذ إحدى حالاته التي أعلن أنها لا يمكن أن تشفى.

صمت "نوما" برهة ثم استطرد:

– هل أنت طبيب حتى تتحدث هكذا؟

– لكن كما قلت لك لي الحق هنا... وأنا أسمعك أتساءل يا دكتور "ارموري" إذا كان أمامي حقا تلميذ "اسكولاب".

– سيد "مولارينو" إني أرفض أن أتناقش أكثر من ذلك مع رجل لا ينتمي إلى مهنتي.

تحول وجه الرجل من اللون الأبيض إلى اللون القرمزي. شاعرا بالإهانة

أجابه قائلا:

– دكتور "ارموري" إذا كنت معتبرا نفسك طبيبا متميزا فهذا لا يمنعني من أن أكتب تقريرا، سأرفعه إلى المجلس الأعلى لأخبرهم بخطر أسلوبك الثوري الذي ستضر به مهنة الطب، وصدقني سوف أجمع كل التوقيعات من زملائك في المنطقة.

ارتسمت ابتسامة سخرية على شفتي "نوما":

– وأنا يا سيد "مولارينو" ما لم أكن أقدرك لما تحملتك بكل هذا الهدوء البعيد عن طبيعتي... والآن دعني أقول لك إن جدي كان طبيبا في الجيش وقد أنقذ حياة ساحر من "هايبيتي"، هذا الساحر كان قد حاول قتله بالسم قبل ثمانية أيام. لقد تعلمت من واجباتي في مهنة الطب مثلا مختلفة عما تعرفه... املأ براميلك بالنبيذ واكسب أموالا كما تشاء ووزعها محاولا أن تصنع قانونا في مجال تجهله. هذا مخز ومثير للضحك في آن واحد... إن شر البلية ما يضحك يا سيد "مولارينو"... انظر لنفسك في المرآة وستفهم.

ساخرا ترك "نوما" الغرفة، تاركا الرجل البدين مختنقا من شدة الغضب.

في الأيام الثلاثة التالية كان "نوما" هدفا لعداء جميع العاملين بالمستشفى. لقد أخذوا أوامر من "مولارينو" الذي أراد أن يشعره بأنه لن ينسى الإهانة. صرح له طبيب شاب شعر بالعطف نحوه ولم يجد في إنقاذه للمعالج شيئا يلام عليه، صرح له بأن صاحب مزارع العنب البدين رجل ذو كرم لا يصدق، وأن إدارة المنشأة تريد مجاملته.

عندما قابل "صوفي" سألها عن أخبار رئتيها:

– لقد شفيت تماما... إن وصفتك الطبية رائعة.

– أنا سعيد بذلك... أود أن تتحسن حالة والدك حتى يبعد عن هنا.

شكت في أنه قد سئم من هذا الاتحاد الذي شكل ضده والذي تنبأت به، عندما يعود والدها إلى البيت هل سيجرؤ على الذهاب إلى عتبة بيت المعالج؟

أمام وجهها الذي ارتسمت عليه علامات القلق، قال لها مطمئنا:

– بمجرد أن يعود والدك إلى البيت سأذهب لعلاجه.

متأثرة تمتمت بعبارات الشكر لكنه قاطعها ليضيف:

– إني أقدر كثيرا السيد "ڤيرنون".

مر شعاع الشمس على وجهها:

– أوه يا دكتور كم تريحني... على الأقل هناك طبيب... وأي طبيب... طبيب متميز من "باريس" يؤكد أن أبي ليس مشعوذا.

غلف "نوما" الفتاة بنظرة حانية، تلك الفتاة التي تدافع بشجاعة في كل مناسبة عن والدها. وهما يتحدثان وصلا أمام باب غرفة "ڤيرنون".

تخلل عبر الستائر ضوء الشمس الغائب عن سريره، كان "ڤيرنون" نائما. لقد كان مازال واهنا، ولكن قد خف توتر قسمات وجهه. كان نائما في عمق حتى إنه لا "أرموري" ولا "صوفي" جرؤا على إيقاظه. كان الليل قد اقترب. قال "نوما":

– ساعود إلى المنزل.

– أنا أيضـــا؛ لأني يجب أن أذهب إلى الميكانيكي، إن هذا الموتوسيكل كثيرا ما يتعطل.

– اذهبي إلى الميكانيكي. سأتبعك بالسيارة وتتركين آلتك وساقودك إلى المنزل.

– اتفقنا.

بعد عشر دقائق كانت "صوفي" في السيارة الرينو. نظرت إلى ساعة يدها.

– سأستطيع أن أبقى نصف ساعة بالقرب من والدي بما أن "ليوني" في "بليني" عند أولادها.

– ما رأيك في العودة عن طريق المدارس؟

نسيم المساء دعوة للتنزه، ألا ترين ذلك؟

مال نحوها. ازدردت "صوفي" ريقها من التوتر:

– هذا صحيح، الجو جميل.

تذكرت ذلك التوتر الذي انتابها عندما كان يتفحصها منذ بضعة

أيام. شعرت بسعادة تنبع من قلبها أضفت على صوتها نبرة جديدة.

عبرا "بون" وسلكا طريق "سير". قالت:

– هذا ليس اتجاهنا.

– هذا صحيح، ولكن جاءتني فكرة.

– أي فكرة.

– أنت لست متعجلة وأنا لا ينتظرني أحد... سأصطحبك للعشاء في مطعم على شاطئ "ساون".

– هذا لطيف جدا.

أدارت رأسها في اتجاه الغابة كأنها تهرب من اضطرابها. حيلة غير ناجحة... لقد رأى ضوءا يلمع في عينيها اللتين لم تستطع إخفاءهما. الفتيات الصغيرات ذوات العيون الجميلة كثيرا ما تنغلق قلوبهن على نار داخلية يجب التخوف منها. لقد انكشف سرها بينما كانت تعتبر أن هذا السر لها وحدها.

قطب "نوما" حاجبيه فجأة. ألم يكن غير حريص عندما أظهر لها هذا التعاطف بهذه السرعة؟

مشيرا إلى طريق ثانوي يعبر القرية، قال:

– لنمض عبر هذا الطريق، إنه مكان ساحر.

تقدمت السيارة الرينو في الظلام. كان الطريق غير ممهد مما كان يدفع "صوفي" نحو "نوما". رجعت إلى الخلف بلطف في حركة سريعة. حاول "نوما" أن يبقيها فتركت يده اليمنى عجلة القيادة وأحاط كتفها. شعرت بضغط أصابعه العصبية على كتفها فارتعشت كأنها تلقت صاعقة كهربائية. أغمضت عينيها كأنها تريد أن تبعد عن فكرة أن حياتها قد تتبع طريقا جديدا وساحرا.. طريقا ستسعد فيه بوجود رفيق إلى جوارها مثل "نوما".

على الرغم من رصانتها لم تكن قد تجاوزت العشرين. في هذه السن ينزلق المرء بسرعة نحو الحلول السعيدة.

فزعت عندما كسر صوت "أرموري" الصمت الذي أحاطهما:

– انظري كم هذا المنظر جميل؟

أشار إلى التلال التي لونتها أشعة الشمس الخافتة المائلة للمغيب. أوقف السيارة.

خرجا من السيارة وذهبا حتى ربوة تطل على البراري المضيئة بالزهور.

بقيا لحظة دون أن ينبسا بكلمة، ينعم كلاهما بالقرب من الآخر بهذا التوافق المثالي الذي يمتزج في هدوء المساء، جاهدت "صوفي" حتى تخرج من هذه النشوة التي أثملتها. حاولت أن تقول شيئا، وعندما نظرت إلى الحشائش الرطبة ومالت واكتشفت نبتة نفّل بأربع ورقات وهي رمز لحسن الحظ، تقف في فخر بين زميلاتها. وبتلقائية قطفت الجذع الأخضر.

– تفضل هذه تميمة ستجلب لك الحظ بالتأكيد.

ابتسم متأثرا بهذه الهدية الساذجة. قال في مرح:

– أريد أن أرد لك كل هذه السعادة التي تمنحينني إياها ولكن هل ساجد واحدة أخرى!

بحث في اجتهاد خلال دقائق ثم رفع رأسه وأعلن فشله. ابتسمت "صوفي":

– هيا، استرح، لا يوجد بدون شك سوى واحدة، وأنا التي وجدتها.

أضافت بصوت منخفض ببعض التأثر:

– من ناحية أخرى هذا هو المعتاد في الحياة (أو على الأقل كما يقال) هناك دائما واحد يعطي أقل من الآخر. هذه هي قاعدة اللعبة.

أمسك بذراعها:

– لا أرغب في أن أكون مدينا لك. لكني أحتفظ بذكرى دينك... يجب أن أجد شيئا آخر.

مال نحوها وشعرت للحظة بأنه سيقبلها. انبهرت مقدما لهذا الفعل الذي لم يكتمل. اعتدل في حيوية مما أصابها بصدمة. بقيا ساكنين الواحد في مواجهة الآخر أمام الأفق الواسع الذي بدأ يخيم عليه الظلام.

فكرت "صوفي" أنها لن تنسى أبدا هذه الساعة المؤثرة التي سجلت خيبة أملها؛ حيث إنه لم يقبلها، ولكنها حملت أيضا سعادة لا حدود لها.

– عندما أفكر في أنني هذا المساء بالقرب منك، وأنني في المرة الأولى التي قابلتك فيها شعرت نحوك بعدم الارتياح. هل تعرف أنه منذ عنايتك المتفانية لأبي أشعر بالندم على سلوكي هذا؟

– حقا... لماذا؟

– بسبب الطريقة العدائية التي قابلتك بها. لابد أنك وجدتني غير لطيفة.

– هل يجب أن أقول لك الحقيقة؟

لقد وجدت أنك امرأة شرسة. لا أعرف كيف أعتذر عن ذلك... ولكني نسيت كل شيء لأنك ساحرة... لكننا نثرثر. هيا بنا بسرعة لنتناول العشاء.

صعدا إلى السيارة ووقفا أمام أحد المطاعم التي تشرف على النهر وله سمعة كبيرة. على الرغم من كثرة الزبائن استطاعا أن يجدا طاولة في مكان هادئ في القاعة الأولى، طلبا بعض المقليات والطبق الخاص بالمدينة.

لم تشعر "صوفي" قط بمثل هذه السعادة. كان "نوما" قد سافر كثيرا، أخذ يتحدث عن "اليابان" و"الولايات المتحدة" وسيطر بسحر حديثه على الفتاة. فجأة تعالى صوت الموسيقى. إنها موسيقى التانجو.

قام بعض الأزواج للرقص.

سأل "نوما":

– هل تحبين أن ترقصي؟

قبلت في سعادة. أخذها إلى ساحة الرقص. توافقت خطواتهما بشكل رائع. احتوى "نوما" "صوفي" بين ذراعيه فشعرت بتوتر لكونه بالقرب منها. همس في أذنها:

– كم أنت مرنة وخفيفة...

– أنا أيضا أحب الرقص معك...

استطرد وهو يضمها إليه:

– لا ضير في أنك كرهتني في البداية.. كثيرا ما تكون هذه هي مقدمات صداقة قوية... تبدأ بالكراهية، وعندما يزيد التعارف

والتفاهم يصبح الاثنان صديقين كان ذلك بفعل معجزة.

سرت رعشة خفيفة بجسدها. إنه يقول لها شيئا لطيفا بالتأكيد ولكنها كانت تفضل كلمة أخرى بدلا من كلمة صداقة. رفعت عينيها نحوه وتقابلت نظراتهما. من الواضح أنها معجبة به، أما هو فهي لا تستطيع أن تعرف فيما يفكر. إن وجهه جامد لا يعكس أي انطباع ولا حنان. شعرت بأنه بعيد عنها مما سبب لها خيبة أمل.

بعد ذلك- عندما استقلا السيارة- تبادلا بعض الأحاديث العادية خلال طريق العودة.

عندما توقفا أمام منزل والدها اعتقدت أنها خرجت من حلم.

لو لم يفتح لها "نوما" الباب فكم من الوقت كانت ستبقى متسمرة في مقعدها؟

- هل تريدين أن نتناول العشاء الأربعاء القادم معا؟ لقد كانت هذه السهرة ساحرة.

ارتعشت من السعادة؛ إنها لم تتوقع مثل هذا العرض.

- بكل سرور.

- سأمر إذن لآخذك الساعة السابعة. طاب مساؤك يا "صوفي".

انحنى أمامها ثم احتضنها وقبل شفتيها بقوة وحنان- في نفس الوقت- تاركا إياها شاردة تماما.

الفصل الرابع

لم تستطع "صوفي" أن تغمض عينيها في هذه الليلة. كانت متأكدة أنه إذا لم يكن "نوما" يحبها فهو على الأقل معجب بها. وهذا يشعل قلبها. سوف تراه من جديد بما أنه قد دعاها.

بدت لها الأيام التي تلت ذلك طويلة وقصيرة في نفس الوقت. تحيا في حلمها، بخلاف اهتماماتها اليومية، تارة في سعادة وتارة في قلق لا تعرف سببه فقد فقدت شعورها بالوقت. لم تعرف كيف مر عليها هذا الأسبوع. وكلما شعرت باقتراب ذلك اليوم الذي سيأتي فيه "نوما" ليأخذها إلى العشاء كانت تفقد صبرها. كانت في أغلب الوقت إما شاردة وإما تدندن في سعادة.

لم يلاحظ والدها أي شيء فقد كان غارقا في أفكاره. فقد كان والدها قد عاد إلى البيت في تلك الأثناء.

جاء يوم الأربعاء أخيرا، أمام النافذة المطلة على الحديقة المشرقة، ارتدت "صوفي" فستانها الحريري وصففت شعرها الأشقر وتعطرت بعطر رقيق.

إن حجرتها الجميلة- ذات الألوان الزاهية والورد المنتشر بين أركانها- تعكس سنوات السعادة وهدوء البال التي عاشتها أثناء المراهقة. كيف سيكون المستقبل إذن؟

هل يتجاوب "نوما" - في نفسه- مع هذا الحب الجديد الذي ينمو بسرعة في قلبها؟

هل لا يرى فيها سوى مغامرة عابرة. بقيت لحظة- وفرشاة الشعر معلقة في الهواء- حائرة. بدا شعاع الشمس الذي سقط على المرآة يتراقص مثل أجنحة الفراشة ثم فجأة غمرتها سعادة كبيرة، إنها ترى نفسها في المرآة فتاة رائعة الجمال. وأخذت تدور في خطوات راقصة.

قالت "ليوني" عند رؤيتها:

- يبدو أنك فرحة يا صغيرتي.

هذه السيدة العجوز القاسية كانت تحن أمام تلك الصغيرة التي ربتها

بعد وفاة والدتها والتي تحبها وكأنها ابنتها.

مدت الخادمة يدها إلى "صوفي" بزوج من الجوارب الشفافة وقالت لها وهي تبتسم في مكر:

– هيا، كوني جميلة يا ساحرتي الصغيرة.

– إني سعيدة يا "ليوني" فإن أبي تتحسن حالته إلى الأفضل.

– فعلا، أنت تتجملين له إذن؟

التقطت السيدة العجوز الأحذية المتناثرة على الأرض. واستطردت:

– هل ذلك لتشاهدي معه التليفزيون؟

– لكن لا، لن أتناول العشاء هذا المساء في البيت، تعرفين ذلك جيدا.

قطبت "ليوني" حاجبيها:

– – لن تأكلي هنا؟ وأنا التي أعددت فطيرة لذيذة!

– إن ذاكرتك ضعيفة أو تتعمدين ذلك، لقد قلت لك إنني مدعوة إلى العشاء مع...

توقفت تاركة جملتها معلقة، ولكن رفعت العجوز سبابتها وهمست:

– أقسم أنك ستخرجين مع الدكتور "أرموري".

– لا أستطيع أن أخفي عنك شيئا. نعم لقد طلب مني أن أتناول العشاء معه.

أضافت بسرعة:

– لقد كان طيبا جدا مع أبي ولم أستطع أن أرفض دعوته، تعرفين ذلك.

ابتسمت الخادمة:

– نعم، نعم... إنك تضحين من أجل العرفان بالجميل.

ضحكت "صوفي" وهي تستكمل تصفيف شعرها:

– هل شكلي جيد هكذا؟

– جميلة يا ابنتي... بل وغاية في الجمال. أنا لا أحب ذلك!

– ماذا تقصدين.

وعندما نظرت إليها "صوفي" في دهشة، استطردت وغمزت لها:

– هل عرفانا بالجميل تتجملين هكذا؟

– لا تسخري مني.

أومأت العجوز برأسها:

– لا شك في ذلك. أنا أيضا في شبابي... باختصار، هل يعجبك الدكتور "أرموري"؟

قالت محاولة التظاهر بعدم المبالاة:

– أجده فاتنا...

رفعت العجوز كتفيها وتمتمت:

– منذ ثلاثة أسابيع لم تكوني تريدين رؤيته؛ فأنت متقلبة.

– لقد حدثت أشياء خلال تلك الأسابيع الثلاثة يا "ليوني"! لقد أنقذ إنسان حياة إنسان آخر.

أجابتها:

– وخطف قلب فتاة... احذري... إنه ليس زوجك.. لا أحب أن أراك تخرجين معه بمفردك.

انتصبت "صوفي" معترضة:

– هل تشكين فيّ؟

– لا... لكنك صغيرة! والصغار غالبا ما يرتكبون الحماقات...

لم تكمل "ليوني" جملتها ولكن تلك الكلمات عبرت عن الكثير.

فجأة دوى نفير السيارة مخترقا الهدوء. فزعت "صوفي":

– ها هو! إلى اللقاء يا "ليوني"... أخبري والدي عندما يعود بأنني لن أتأخر.

أسرعت "صوفي" إلى الخارج تحت نظر السيدة العجوز. تاركة في الحجرة عطرها الرقيق.

كان "نوما" ينتظرها بالقرب من السيارة. كان يرتدي ملابس فاتحة، إنها ملابس صيفية بدلا من الحلة الكاملة التي يرتديها في الزيارات الطبية الرسمية أو القميص الرياضي الذي يرتديه في البيت. كان ذلك أول ما لاحظت. قد يعني هذا أنه يعطي للقائهما قيمة خاصة فيضعه

خارج الإطار العادي لانشغالاته.

سألت نفسها- وقلبها يدق بشدة- إذا كان سيتبع معها سلوكا مختلفا بعد القبلة الحارة التي منحها إياها؟ لكنه كان متحفظا. وعلى الرغم من ذلك قال:

- مساء الخير: أنت أكثر جمالا من المعتاد.

ابتسمت في سعادة ولكنها لم تجد شيئا تقوله.

صعدا إلى السيارة، سلكا طريق "ديجون"، ألقت "صوفي" رأسها إلى الخلف. إن الهواء الرطب يصفع وجهها. أغمضت عينيها هاربة من نظرات "نوما" التي يرمقها بها من آن لآخر.

- أتشعرين بالبرد؟ لقد فتحت السقف. الجو جميل جدا.

- أنت على صواب... الجو جميل ولا أشعر بالبرد.

تبادلا أحاديث لا تعني شيئا.

عبرا المدينة الصغيرة وأخيرا بعد ربع ساعة هدأ "نوما" سرعة السيارة ثم توقف أمام منزل ريفي جميل تحيطه مزارع العنب. كانت هناك عدة سيارات مصطفة بطول الطريق تشهد على شهرة هذا المطعم.

قال "نوما":

- هيا.. إنه مكان لطيف ولدي فكرة مؤكدة أننا سنجد طعاما شهيا في هذا المكان.

بعد بضع دقائق قادهما صاحب المطعم- بعيدا عن الزبائن الآخرين- إلى طاولة تحت شجرة مزهرة ويفوح منها العطر.

أدركت "صوفي" أن الدكتور "أرموري" قد حرص على حجز هذه الطاولة. بينما كانت تبحث أين تضع حقيبة يدها البيضاء، خبأ "نوما" تحت الفوطة لفافة صغيرة أخرجها خلسة من خزانة سيارته تقدمت نحوهما النادلة لتأخذ طلبهما. قال مقترحا:

- مارأيك في القواقع كمقدمة؟ وبعد ذلك دجاج مشوي؟

إنها قائمة ممتازة. من ناحية أخرى في ظل الحال التي عليها "صوفي" فإن كل الأطباق بالنسبة لها واحدة. ولذيذة. على الرغم من شعورها بخيبة الأمل.

خلال وجودهما في السيارة بمفردهما لم يذكر "نوما" قبلتهما في الليلة الماضية. ربما في هذا المساء عندما يوصلها يكرر ما بدر منه في تلك الليلة؟

وصلت إلى مسامعهما موسيقى القالس البعيدة. عندما رفعت "صوفي" الفوطة، صاحت في دهشة:

- أوه يالها من مفاجأة!

لقد اكتشفت هدية "نوما". مزقت على الفور الورق الذهبي الذي يغلفها.

- أوه! زجاجة عطر. إنها آخر صيحة في عالم العطور. كم تدللني.

بجانب الزجاجة وجدت زجاجة على شكل سلسلة. علقتها على الفور في رقبتها. ورفعت تجاهه عينين مفعمتين بالسعادة.

- حقا، إنك لطيف جدا.

ابتسم "نوما":

- لقد أعطيتني قبل ذلك هدية- بالفعل- عندما أعطيتني نبتة النفل ذات الورقات الأربع التي أحتفظ بها منذ ذلك اليوم لتجلب لي السعادة، وكذكرى لهذه النزهة الساحرة. كما أنك عندما أعطيتني إياها قلت لي: "هناك واحد يعطي دائما أكثر من الآخر!".

صمت "نوما" عندما جاءت النادلة تحمل الطبق الأول. كانت السعادة تبدو على "نوما" بشكل واضح، أخذ يتحدث عن أشياء كثيرة وهو يتذوق الأطباق اللذيذة.

شعرت "صوفي" بأنها بمفردها تماما مع رفيقها إذ لم يكن هناك عدد كبير، وكانوا أزواجا متناثرة على الشرفة ولا أحد يهتم بهما، في نهاية العشاء. قال "أرموري" مقترحا:

- هل تريدين بعض الشراب؟

- لست معتادة تناوله!

- مرة واحدة... سينهي هذا العشاء اللذيذ بشكل جميل.

الفصل الخامس

غمرها الشراب بنشوة نادرة. إنها لم تشعر قط بمثل هذه السعادة التي تشعر بها هذا المساء.

– سآخذ كاسا أخرى واثنتين إذا أصررت قليلا.

– حسنا.

أجابت:

– إني في قمة السعادة بالإضافة إلى أن اليوم هو يوم احتفال؛ لأن أبي يتحسن وهو الآن بحالة طيبة جدا. الحياة جميلة. ألا تجد ذلك؟

غلف "نوما" الفتاة بنظرة طويلة ولم يجبها. هل يشك في وجود فخ في سؤالها هذا؟

ألا يريد أن يتذكر هذا الفعل المتهور الذي صدر منه المساء الماضي؟ ربما يندم على ما بدر منه؟

شعرت "صوفي" ببعض الإحراج ولكن تبدد عنها هذا الشعور بسرعة. مال "نوما" نحو هذا الوجه الصغير الذي بدا عليه القلق.

– "صوفي": لقد فكرت فيك كثيرا.

قالت هامسة:

– وأنا أيضا.

نظر إليها بابتسامة على شفتيه. هل يفكر في القبلة التي على الأحرى سرقها منها؟

تلك القبلة التي خدرتها والتي مازالت تحمل آثارها كأنها حرق.

– أنت فاتنة جدا... وأنا متأكد أن كثيرا من الرجال يعتقدون نفس الشيء.

توردت... وربما لكي تخفي خجلها خفضت أهدابها الطويلة. أمسك بذراعها وجذبها نحوه وفي رد فعل تلقائي رجعت إلى الخلف كأنها فزعت فجأة. لكنها ندمت على هذه الحركة التي قد يسيء "نوما" تفسيرها قالت في رقة:

– أنت باريسي... ولا تعرف تماما الحياة في الريف.

سألها دهشا:

– كيف ذلك؟

– هل تعرف أن عشاءنا بمفردنا قد يثير القيل والقال بين أهل المدينة؟ لنحترم إذن المسافات.

لمحت في عينيه لمعة سخرية ولا مبالاة.

– يثرثرون! هذا لا يضرنا في شيء!

هزت رأسها:

– طبيعي! ولكن أنا، ابنة المعالج أتعشى مع العدو. هل تتصور؟

فزع "نوما":

– يا إلهي! لم أفكر في ذلك. هل تمثل مسرحية "لوسيد": "شيمان" البطلة تتعشى مع "رودريج". الاختلاف الوحيد هو أنني لم أقتل أباك.

قالت "صوفي" متظاهرة بالحزن لتنضم إليه في سخريته:

– الأمر أخطر من ذلك، لقد أنقذته، وأراهن على أنهم سيتحدثون عن هذا العشاء غدا عند البقال.

ضحك "نوما":

– لن يهتم البقال، لا طائل من ذلك، إن هذه القصص لا تشغله كثيرا.

– "نوما" أنت لا تعرف البلدان الصغيرة واهتماماتهم.

– ربما، وعلى الرغم من ذلك فأنت تبالغين ولن يعرف أحد شيئا. كل الموجودين غرباء.

رفعت "صوفي" خصلة شعر من على خدها وقالت:

– لكن نادلة هذا المطعم هي أخت صاحب بقالة "مونجوديت". لقد عرفتها وأدارت هي رأسها متظاهرة بأنها لم تعرفني.

– وهذا ينم عن شيء.

– ما هو؟

– من الغد ستروي في المدينة أننا تبادلنا القبلات هذا المساء على هذه الطاولة.

– آنسة "ڤيرنون" هل يقبلك أحيانا أحد فرسانك؟

أراد أن يذكرها بعناقهما.

– دكتور! هل تعاني ضعف الذاكرة؟

عقد ذراعيه فوق صدره وبدا متضايقا فجأة وقال:

– حسن يا آنستي، أنا لم أقل شيئا.

كانت السماء فوقهما قد تحولت إلى اللون الداكن، وطافت حمامة تنادي فرخها. كان الجو هادئا بينما كانا يتحدثان متناسيين كل ما لا يهمهما، كانت نداءات الرعاة وهم ينادون القطيع تتعالى.

شعرت "صوفي" بهبوط الليل. أمسك "نوما" بيدها في رفق كأنه يريد أن يطمئنها. فانتابها نفس الشعور الذي يوخز قلبها.

ارتعشت أصابعها لكنها لم تتحرك حابسة أنفاسها.

بقيا صامتين يسمعان في هدوء صوت الحمام، وبادرت "صوفي" بكسر هذا الجو الشاعري الذي أصبح خطرا بالنسبة لها. قالت:

– ربما يجب أن نمضي الآن، أبي ينتظرني ولا أريده أن يقلق بشأني.

أجاب "نوما":

– أنا تحت أمرك وسأفعل ما يروق لك.

تركا الطاولة المحاطة بالزهور.

عندما تركا الأوبرج الصغير لاحظت "صوفي" بشيء من عدم الارتياح، نظرة النادلة التي كانت تتحدث مع صاحبة المطعم. إنها لم تشك في أن حديثهما كان عن ابنة المعالج التي تتقابل مع الطبيب الجديد في مكان عام.

على الطريق في الظلام الذي يغلفهما تلامست أيديهما عدة مرات. شعرت "صوفي" بموجات حارقة تعتريها. هل سيحتضنها بعد قليل عندما تحين لحظة الوداع؟ هل ستشعر بشفتيه الحارقتين مرة أخرى.

واعية لضعفها حاولت أن تتحدث عن أشياء أخرى مع رفيقها الذي شرح لها كم يرى أن مهنته شيقة.

ولكن لم يشغلها سوى فكرة واحدة.

"هل سيقول لي ببساطة تصبحين على خير؟" ألا يندم على اندفاعه

في المساء الماضي؟

كان الليل قد حل عندما توقفت السيارة أمام منزل المعالج. لم ينبعث من المنزل أي ضوء. يبدو أن الجميع قد ناموا. هذا الاستنتاج قد أراح "صوفي"؛ إنها لن تضطر إلى أن تحكي ما حدث في هذه السهرة. ستحتفظ بكل مشاعرها لنفسها ومن يعرف؟ ربما تحت نظرات والدها النافذة تكشف كل شيء.

أمسك برسغها ليساعدها على الخروج من السيارة وقبل أن تتنبأ بما سيفعل أطبق بشفتيه على يدها.

ارتعشت. لابد أنه لاحظ اضطرابها، جذبها إليه وهمس:

– كم أنت جميلة.

قفز قلب الفتاة وكاد "نوما" يسمع دقاته غير المنتظمة. رفع وجهها لينظر إلى عينيها. استسلمت كأنها مخدرة.

الشراب الجيد المختلط بالنعناع الأخضر قد أفقدها إرادتها. وعندما كانت قريبة منه شعرت بأن العالم كله يختفي من حولها.

– "صوفي" أنت تروقين لي بشدة.

لقد جاءت اللحظة التي كانت تنتظرها منذ بداية سهرتهما. كم من الوقت سيبقيان متعانقين هكذا؟ لم تعرف "صوفي". تحرر "نوما" أولا.

– يجب أن نكون عاقلين...

لم تجب "صوفي" في شدة اضطرابها. قال:

– إلى غد... أيتها الفتاة الصغيرة العزيزة.

رددت بآلية:

– إلى الغد.

لم تكن تعرف كيف ستصل إلى غرفتها. بدا وكأن أياما وأياما قد مضت منذ أن خرجت. واقفة في نافذتها، مستندة إلى مرفقيها، استمعت طويلا لأصوات الليل المختنقة وفكرت وهي تستنشق الهواء الرطب المعطر المنبعث من الحديقة أن حياتها لن تكون أبدا كما كانت من قبل، حياة هادئة وتتميز بالحكمة.

إنها تعجب "نوما"... كما يبدو لها.

لماذا تحير نفسها؟ لقد حولها الحب الذي تملكها إلى إنسانة أخرى.
فكرت وهي تذهب للنوم وتستنشق في سعادة زجاجة العطر "هيا، حياتي تبدأ اليوم لأني أحب لأول مرة. لماذا أعذب نفسي؟"
في هذه الليلة اتخذت أحلامها كلها صورة "نوما".

الفصل السادس

لم يتأخر سكان هذا الركن من "بورجوني" الذين كانوا فضوليين بطبيعتهم ويميلون إلى الثرثرة مثل سكان كل المدن الصغيرة، عن ملاحظة التغيرات التي طرأت على "صوفي".
لقد طلبت في هذا الصيف عدة فساتين خفيفة وذات ألوان زاهية ومرحة وكانت تعتلي شفتيها دائما ابتسامة مشرقة وفي عينيها لمعة جديدة.
قيل في محلات "چون بيان" في المنطقة:
– لقد تحولت إلى فتاة تهتم كثيرا بنفسها. غير مبالية بهذه الأقاويل، تائهة في أحلام تفصلها عن الواقع، كانت "صوفي" تمضي دون أن تلاحظ شيئا وتفتح قلبها البكر على مصراعيه لهذه العاطفة الجديدة عليها.
في بيتها الهادئ وحديقتها المزدهرة حيث تزهر الآن زهور الداليا والزهور الهندية فتعطي ألوانا حمراء وذهبية، عاشت في انتظار جميل، يحيطها الهدوء غير منشغلة بوالدها الذي يتحسن في بطء ولا يستطيع أن يستشف من روحها الطفولية السر الذي لا تحسن إخفاءه.
كان يقول لها أحيانا:
– أنت شاردة يا ابنتي عندما أمليك بعض النقاط.
كانت "صوفي" تجيب متوردة الخدين ولكن ليس بسبب الصيف.
– الجو حار جدا!
كان "ڤيرنون" يرتضي هذا التبرير، ويعود فيستغرق في كتبه عن ممارسة الطب أو في ملاحظاته الشخصية ناسيا تماما مشاعر الحب التي يعرفها من هم في سن العشرين.
مر أسبوعان. كانت "صوفي" ترى "نوما" بانتظام كل ثلاثاء وجمعة فقد كان يوصلها إلى دروس المحاسبة تحت حجج مختلفة. كان لديه دائما مريض يذهب ليعالجه في هذه المنطقة...
بالتأكيد كانت "صوفي" سعيدة بمرافقة "نوما" ولكنه عندما كان

www.rewity.com

يمتدحها أو أحيانا يقبل خدها كان يلاحظ منها بعض التحفظ مما جعله يقول لها ذات يوم:

– آنسة "ڤيرنون" ما لم أكن أحترمك فهذا يعني أنني لا أحترم نفسي.

أجابته:

– لا يعنيني احترامك. أريد حبك.

في هذا المساء عندما عادت إلى البيت سالت الدموع على خديها، أدركت أنه لا يفكر في ارتباط مستقبلي معها. على الرغم من ذلك فقد احتضنها في حنان. كانت الأمور ستستمر على هذا الحال طويلا دون أن يحدث شيء ما لم يصارحها "نوما" ذات جمعة قائلا:

– هل تريدين الذهاب إلى "أرني– لو– ديك"؟ وليستمتعا بالضوء الأصفر الفوسفوري توقفا عند مطعم ليس بعيدا عن البركة، جلسا في ظل شجرة صفصاف، ارتشفا شرابهما صامتين، إن أبصارهما شاردة ينظران إلى العصافير التي تطير بالقرب منهما كأنها تهرب من خطر غامض في السماء.

كان الجو ثقيلا معبقا برائحة الزهور الظمآنة.

قالت "صوفي" فجأة وهي تحرك في معصمها سوارا ذهبيا يحرق بشرتها.

– الجو حار جدا هذا المساء.

– هذا صحيح. يبدو أن عاصفة ستهب هذه الليلة.

نظرت في الأفق الذي بدأ يظلم. قالت:

– ربما يجب أن نعود، لكنني بدون شجاعة في مثل هذا الطقس ومهما كلفني الأمر لا أريد أن أبرح هذا المكان الذي أسعد فيه بالجلوس معك.

– لم يعد في كأسك ثلج، تريدين كأسا أخرى؟

إن سؤاله هذا سطحي جدا. منذ لقائهما لم يقل أي ملاحظة عن شخصها، إنه يتصرف معها كأنه غريب. إنه لطيف معها بالتأكيد ولكن ليس أكثر من ذلك. شعرت بمرارة خيبة الأمل وألم داخلي. هكذا

ستنتهي هذه القصة التي لم تكد تبدأ.

أجابت بصوت بائس يقترب من البكاء:

– لا.. شكرا، لا داعي! الشراب لا يفعل شيئا حتى مع الثلج أفضل أن أبقى دون أن أتحرك.

على الطريق مرت عربة محملة بالحشائش الجافة تاركة خلفها رائحة القش الجاف. حاولت "صوفي" أن تقول شيئا ولكن بقيت جملتها بدون صدى. يبدو "نوما" مستغرقا في أفكاره، بعيدا، وربما غير مبال.

صمتا من جديد. فيم يتحدثان؟ بعد لحظة قالت "صوفي" وقد دفعها تفكيرها لكي تعرف فيما يفكر:

– لو تعرف كيف أنتظر بدون صبر الأيام التي ألقاك فيها... يبدو لي أن صداقتنا تتزايد بصفة مستمرة ولا أستطيع أن أتصور اليوم الذي لم أكن أعرفك فيه بعد. لكن هل أنت تشعر بنفس الشيء تجاهي؟

كان "نوما" يحيط كوبه الفارغ بكفيه. وضع الكوب على الطاولة ببعض الضيق:

– إني معجب بك كثيرا يا "صوفي" ولم أكن لآتي هنا ما لم أكن كذلك، ولكن...

قاطعته فجأة بعصبية. إنه يتحدث عن الإعجاب. إعجاب فقط! لقد أصابتها هذه الكلمة بصدمة. قالت:

– أعتقد أنني إذا اضطررت في يوم ما ألا أراك فليس هناك ما يواسيني. أبدا.

ساد بينهما صمت ثقيل مثل الجو الذي يحيطهما. لم يسمع سوى أزيز محرك بعيدا على الطريق وبعض الطيور المختبئة في الحشائش القريبة.

وضع "نوما" يده على معصم الفتاة الرقيق. قال في هدوء:

– يا صغيرتي، كلماتك تثيرني لكي أتحدث معك بصراحة عن موضوع كان يثقلني منذ فترة طويلة: أنت تعتقدين أنني غير مرتبط، أليس كذلك؟

تبدل وجه "صوفي" فجأة كأنها فقدت كل دمها. تمتمت:

– لن تقول إنك...

أجابها:

– للأسف. أنا خطيب ابنة رئيسي في العمل، البروفيسور "أندرو".

مختنقة استطاعت أن تقول:

– الجراح الكبير؟

– نعم... أتمنى ألا يلقي هذا التصريح بالظلال على صداقتنا التي أحرص عليها تماما.

أمسكت "صوفي" المفرش بيديها دون أن تلاحظ وأومأت برأسها. دون أن تجيب.

مال "نوما" نحوها:

– هل أنت غاضبة لأني لم أخبرك بهذه الحقيقة إلا الآن؟

كيف يتحدث بعدم المبالاة هذه؟ هل ينسى أنه ضمها إليه كأنها ملك له؟ هل نسي أنه قال لها "أنت تروقين لي بشدة"؟ لم تستطع أن تتفوه بكلمة، شعرت بالدموع تتجمع في عينيها. ألقت برأسها إلى الوراء وبقيت على هذا النحو وهي تحاول أن تمنع دموعها.

لاحظها "نوما" في ضيق شديد، كما رأى دموعها تسيل على خديها.

نهض وأحاط وجهها المتألم هامسا:

– يا صغيرتي! هل أنت جادة؟ هل تخيلت أن...

هزت رأسها في يأس ومسحت دموعها بسرعة وقالت:

– لا شيء! لا عليك.

ولكن كان ألمها شديدا فانفجرت في عاصفة من الدموع التي هزتها تماما. انزعج "نوما" تماما لما يرى من ألم شديد هو المسؤول الوحيد عنه. أحاط كتفيها المرتعشتين بذراعه كأنه يحميها. أبعد عن وجهها خصلة الشعر الذهبية التي تحجب ملامحها وبتلقائية قبل خصلاتها الشقراء. متنهدة، حاولت "صوفي" التخلص من عناقه.

نهض "نوما" ورجع خطوة إلى الوراء. ودون أن تنبس بكلمة نظرت إليه "صوفي" بعينيها الواسعتين.

بداخل المطعم دقت الساعة الكبيرة عدة دقات ودوى صوت الرعد في الأفق. لم تعد أوراق شجرة الصفصاف تتحرك كأنها تنتظر شيئا ما.

قال محاولا كسر سحر هذه اللحظة:

– هيا! هيا! آسف لأني فقدت هدوئي وأطلب منك أن تنسي ذلك.

همست:

– إذا كنت تعتقد أن ذلك سهل، فأنت لا تستطيع أن تعرف ماذا تكون بالنسبة لي.

– يا طفلتي الصغيرة! أرجوك لم أكن أعتقد أنك رومانسية إلى هذا الحد ولم أظن قط...

قالت:

– بالتأكيد ترى أنني غبية.

سألها بصوت منخفض وهو ينظر إليها بشدة:

– هل تعتقدين ذلك؟

وكان العاصفة لم تكن تنتظر سوى هذه النظرات المشتعلة لكي تنفجر، مزق البرق السحب السوداء الكثيفة وهطلت الأمطار بغزارة.

بسرعة دخلا إلى القاعة الداخلية للمطعم، الخالية في ذلك الوقت. الخطوات التي قطعاها حتى الداخل تحت هذه الأمطار الغزيرة تركتهما مبتلين من رأسيهما حتى أقدامهما. رآها وهي ترتعش فقال:

– إذا بقيت مبتلة على هذا النحو فستصابين بالبرد. سندخل هذا الفندق لتجففي نفسك.

وجدا نفسيهما في قاعة كبيرة تزينها باقات من الورد. جاءت صاحبة الفندق وهي سيدة ممتلئة تبتسم، قالت:

– أوه! إن حالكما يرثى لها.

سألها "نوما":

– هل من الممكن أن نستبدل ملابسنا؟

أجابت السيدة مبتسمة وهي تفكر في الربح الذي ستحققه:

– سيدي ساعطيك حجرة. إن لدي واحدة خالية. بعد أن تخلعا ملابسكما سآخذها وأجففها في المطبخ وساقوم بكيها إذا لزم الأمر.

غرفة بها عدة فوط وبشكير.

صعدا خلفها سلما قديما طقطق خشب درجاته تحت اقدامهم قادهم إلى الدور الأول حيث تصطف عدة أبواب في ردهة يحمل كل باب رقما.

فتحت السيدة أحد الأبواب. إنها حجرة جميلة إلى حد كبير يضيئوها نافذة كبيرة. في إحدى زواياها خلف باراڤان كان يوجد حوض. أشارت إليه السيدة قائلة:

– لديكما أيضا ماء ساخن. في هذه اللحظة لدي ستة زبائن ولقد شغلت السخان الكهربائي. ساترككما. ضعا ملابسكما على مقعد في الردهة وسآخذها.

عندما أغلقت السيدة الباب خلفها شعرت "صوفي" بارتباك شديد. هذه السيدة تعتقد أنهما زوجان.

قال "نوما":

– أرجو المعذرة سابدا أنا لكني سآخذ البشكير.

ذهب خلف الباراڤان وبعد قليل خرج ملتفا بهذا الرداء. أخذ مقعدا ووضع فوقه الملابس المبتلة. ووارب الباب ووضعها بالخارج.

خاطب "صوفي" التي كانت قد اخذت مكانه خلف الباراڤان.

– أعطيني فستانك.

خلعت فستانها ووضعته أعلى الباراڤان. أخذه ووضعه بدوره على المقعد ثم أغلق الباب.

قال:

– هل تريدين أن أساعدك؟

أجابت خلف الساتر:

– لا عليك.

قال وهو يتقدم حاملا منشفة صغيرة:

– بالتأكيد لا تستطيعين تجفيف ظهرك بمفردك.

رأت انعكاس صورته في المرآة، صاحت محاولة أن تغطي ما ظهر منها.

– أنا لست جاهزة.

ابتسم:

– هل نسيت أنني طبيب وأعرف جسد المرأة.

ضحك من اضطرابها:

– هل تعرفين أنك تصلحين موديلا لرسام؟ إن قوامك جميل حقا.

شعرت "صوفي" باضطراب شديد، قالت في نفسها: "إنني بالقرب منه، وهو معجب بي ويحترمني لأنني في نظره فتاة صغيرة، كم هي حمقاء تلك الحياة".

عندئذ جاءتها فكرة مجنونة:

– ما تقوله لي بشأن الرسم قد قيل لي مرارا، يبدو أنه لا بأس بقوامي.

نظر إليها في المرآة التي تعلو الحوض، سألها في دهشة:

– رجال آخرون... هل أعجب بك رجل آخر إلى هذا الحد؟

ضحكت متظاهرة بأن كلماتها صادقة.

– من تعتقدني، إنني فتاة عصرية ولا أعيش كراهبة، هذا لا يناسب هذا العصر.

– آه، حقا؟

– ولكي أخيب ظنك لقد كانت لي مغامرتان. الاثنتان مخيبتان للآمال.

بينما كانت تتحدث وضع يديه على كتفيها وجذبها نحوه:

– لماذا لم تخبريني بذلك؟ يا صغيرتي... هل تقولين لي الحقيقة؟

أجابته:

– ما فائدة أن أكذب عليك.

– لقد قلت لك إنني مرتبط وسأتزوج في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) إذن لا تتوقعي معي إلا حبا بدون مستقبل، ولا أريد أن أسبب لك ألما.

أصابتها هذه الكلمات بوخزة في قلبها ولكنها وجدت القوة حتى تبتسم:

– أعرف ذلك. أنت لست أول رجل. أنت مخلص... وأنا أيضا.

"نوما" حبني هذا كل ما أطلبه منك، وبعد إذا أردت فلن تراني بعدها. سافعل كل ما تريد. لن أطلب منك شيئا أبدا... أقسم لك.

رأت في عينيه نظرة لم ترها من قبل. قط في هذه اللحظة مزق البرق السماء وتبعته زمجرة الرعد.

الفصل السابع

شيئا فشيئا ابتعدت العاصفة. لدقائق طويلة،بقيا صامتين. أما "نوما" فقد قطب جبينه وسألها بشيء من العتاب:

- لماذا كذبتني؟

- أوه... "نوما".

نهضت وتعلقت به. فدفعها.

حملقت إليه بعينين لامعتين بالدموع.

- "نوما"، لو تعرف كم أحبك! كم أردت أن أعرف الحب معك! مع أحد آخر لما استطعت ذلك أبدا.

ارتعش صوت "صوفي". أجابها بقسوة:

- لهذا السبب وضعتني أمام هذه المسؤولية الخطيرة؟

ربت خد "صوفي":

- لقد أخبرتك بأنني مرتبط.

أجابته:

- أعرف ذلك. حتى لو بعد هذه الدقائق التي لا تنسى يجب ألا أراك أبدا، ساقبل قرارك وستكون قد أعطيتني سعادة عمري كله.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة شاحبة:

- مجنونة صغيرة! رومانسية جدا! أتمنى أن تجدي بسرعة ذلك الشاب الذي يكون لك نعم الزوج ويمنحك السعادة.

صاحت:

- أوه... لا تقل ذلك.

دهش:

- لماذا؟

- لأنك عندما تتحدث هكذا... فهذا يعني أنك لا تحبني.

- بلى، بما أني أتمنى لك السعادة من كل قلبي. آسف، لم يكن من الواجب قط أن أستسلم لهذه التجربة الخاطئة. يالي من جبان!

مفكرا، ابتعد عنها. اقترب من النافذة. العاصفة التي كانها موسيقى

www.rewity.com مـــروريـــة

تصويرية قد هدأت الآن. المطر الخفيف هو الذي يسقط الآن من السماء بعد هطوله الشديد منذ قليل. إنها نفس صورة العاطفة الحميمة التي جمعتهما والتي هدأت الآن.

واتخذ قرارا. يجب أن يجد حجة لكي يذهب إلى "باريس" بسرعة إذا بقي في "آلوكس" ربما لن يقاوم رغبته في معاودة رؤيتها. يجب أن يفعل ذلك ليحافظ على سمعة "صوفي" ويجنبها لحظة الفراق القاسية. في الطب يستأصل المرض من جذره، وسيفعل معها نفس الشيء. انتزعها من أفكارها وأحاط كتفيها بذراعه.

– يا عزيزتي لقد وضعت صاحبة الفندق الملابس المجففة على المقعد. ارتدي ملابسك. لا نستطيع أن نتأخر هنا، الوقت يمر.

فزعت كأنها قد خرجت من حلم وبحركة آلية ارتدت ملابسها.

عندما خرجا من الغرفة، قالت السيدة بصوت حاد:

– إذن سيدي– سيدتي كل شيء على ما يرام؟

ثم استطردت:

– زوجان حديثان لا يخشيان العاصفة. أليس كذلك؟

هذا التعليق أصاب "نوما" بالقشعريرة. أدرك أن في بلدة صغيرة كهذه تتبعهما النظرات. نعم، يجب أن يغادرا المنطقة بأقصى سرعة.

عندما وصلا إلى أسفل السلم اكتشفت "صوفي" أنها نسيت في عجالتها حزام الفستان. استدارت وصعدت بسرعة إلى الغرفة ولكنها لم تجده. تأخرت وهي تبحث عنه.

كان "نوما" قد حاسب صاحبة الفندق ودهش عندما لم يجد "صوفي" ذهب ليبحث عنها. في هذه الأثناء توقفت سيارة أمام الأوبرج الصغير ونزل منها بعض النزلاء.

في اللحظة التي دخل فيها "نوما" الغرفة وجدت "صوفي" حزامها قد انزلق تحت السرير.

كانت منخفضة لتأخذه. عندما رفعت رأسها اكتشف "نوما" وجهها وقد أغرقته الدموع.

– يا صغيرتي العزيزة... أنت تبكين؟

لقد شعر بالعطف عليها ولعن الكلمات القاسية التي تفوه بها منذ قليل.

تمتمت رافضة الكشف عن حزنها:

– لا شيء.

بتلقائية جذبها نحوه.

– لقد آلمتك. إنني فظ. أريد أن أصلح كل ما تسببت لك فيه من ألم.

– هذا ليس خطأك.

ضمها بقوة:

– لا تبكي... أرجوك.

رفعت إليه عينين حزينتين:

– لماذا قلت إنني يجب علي أن أتزوج. هذه قسوة...

هز رأسه. لقد كانت مرتعشة تماما، رفع رأسها وقبل شفتيها بحرارة. في نفس اللحظة فتح الباب، الذي كان قد دفعه خلفه بتلقائية، فجأة.

ظهر عند عتبة الباب رجل يرتدي معطفا ضد الماء.

قال الصوت الأجش:

– أوه... أرجو المعذرة يا دكتور، لقد أزعجتك.

فزعا. رجعت "صوفي" للخلف وقد احمر وجهها خجلا بينما استدار "نوما" وقد تعرف في دهشة على "مارسيل مولارينو" هذا الرجل المساهم في المستشفى الذي تشاجر معه.

تقدم خطوة إلى الأمام. كان الغني صاحب مزارع العنب قد انسحب صافقا الباب بشدة معربا بهذه الحركة عما يفكر فيه بالنسبة لسلوكهما.

قال "نوما" وهو يأخذ "صوفي" خارج الغرفة.

– تعالي.

لكن لكي يغادرا الأوبرج لم يكن هناك مخرج آخر سوى قاعة المطعم. من حسن الحظ كان "مولارينو" يجلس إلى طاولة بالقرب من المدفأة مع شخصين برفقته وكان ظهره موجها للسلم. كان يتكلم بصوت عال ويضحك.

مر "نوما" و"صوفي" بسرعة. إن هذا الرجل الذي أظهر له العداء منذ اللقاء الأول لن يتأخر في أن يشيع في البلد كله ما رأى بينه وبين "صوفي" ستورط "صوفي" بدون شك. إنها المصادفة السيئة التي جعلت "مولارينو" يتعرف على سيارة "نوما" الرينو الواقفة أمام الأوبرج أثناء مروره من هذا الطريق.

لقد توقف إذن واقترح على أصدقائه تناول شراب، يدفعه الفضول صعد إلى الطابق وهو يعرف أنهم يؤجرون الغرف في هذا الطابق بنية أن يفضح هذا الطبيب الشاب إذا اكتشف ما يشينه. هذا الطبيب الذي يحقد عليه منذ أول لقاء لهما.

الآن هما في طريق العودة، لقد توقفت العاصفة تماما. كان الاثنان صامتين مستغرقين في أفكارهما، كانت "صوفي" شاحبة تماما. خمن "نوما" بألم ما بها من خوف.

غدا ستعرف القرية أنها تقابل الدكتور "نوما" سرا في أحد الفنادق الصغيرة بعيدا عن القرية. كيف سيكون رد فعل والدها الذي يثق بها؟ هل ستعترف له بهذا الحب الذي يحرقها؟ هل ستنكر؟ على أية حال ستعاني كثيرا.

منذ أن فاجأهما "مولارينو" لم يتبادلا كلمة واحدة. بجوار "صوفي" كان "نوما" يقود بسرعة على الطريق اللامع بفعل الأمطار دون أن يفكر في تجنب تجمعات الماء. لم يكسر الصمت الذي يحيطهما سوى صوت عجلات السيارة على الأرض الزلقة.

أخيرا قالت "صوفي":

– ها هي المنازل الأولى تظهر هناك. توقف عند بداية الطريق، سأصل إلى المنزل سيرا على قدمي، إنني متأخرة تماما، لا طائل من أن يرانا أحد معا. ما لم يفضحني بالفعل هذا السيد التعس الذي صادفناه.

وهي تتحدث وضعت يدها على يد "نوما" الذي رفعها ووضعها على شفتيه.

– تعرفين جيدا يا عزيزتي أنه غير رحيم، وأنه سيكون سعيدا أن يسيء إلى والدك. لقد كنت مجنونا لما ذهبنا إلى ذلك الفندق.

لم تعد تبكي. نظرت إليه في حب.

– لا، كانت غلطتي. لقد كذبت.

– نعم ولكن أطلب منك أن تسامحيني.

صاحت متظاهرة بالسعادة:

– اصمت إذن! لقد عرفت سعادة كبيرة! لا يهمني رأي الناس فيّ.

صمتت برهة ثم استطردت:

– إن أبي عدوه بالفعل. لن يغير ذلك شيئا. لكن دعنا لا نتحدث أكثر من ذلك عنه.

نظر إليها "نوما":

– يا طفلتي الصغيرة، إني معجب بك كثيرا. تعرفين ذلك، أليس كذلك؟

وقلبها يدق قالت:

– نعم أعرف.

– إذن لا يجب أن أسامح نفسي إذا أصبتك بأذى.

صاحت:

– لكن على العكس! أنت أول رجل أحببتني، هذه اللحظات ستظل محفورة في نفسي.

أغلقت عينيها لتستعيد تلك اللحظات القصيرة من السعادة وقالت:

– أعرف أن هناك سيدات يعشن وفيات لذكرى زوج.

وعندما صمت، رفعت إليه عينين ساحرتين قلقتين:

– هل ترى أنني طفلة لأنني أكلمك على هذا النحو؟

لا. لا يرى "نوما" أنها طفلة ولكنه كان دهشا لهذا الذي يقرأه في عينيها اللامعتين. قال في نفسه: "هذه الصغيرة رومانسية تماما".

قال لها في بساطة:

– اليوم تتحدثين معي هكذا لأنك فتاة صغيرة رومانسية وكريمة. لكن إن وصل إلى والدك بسبب ثرثرة هذا الرجل أنني عالجته بتفان لأني أردت إغواء ابنته فلن تسامحيني أبدا.

بدت على وجهها علامات السعادة لكنها أجابت بسرعة:

– لقد حدثتك بالفعل عن سعادتي. هذه السعادة ستساعدني على تحمل وحدتي. هذا هو الشيء الوحيد الذي يهمني! الباقي ليس له أهمية عندي.

قال "نوما" في تأثر:

– يا حبيبتي.

ندم "نوما" على مناداته لها بهذه الصفة الحانية، لكنها جاءت على شفتيه تلقائيا، قالت له:

– أريدك أن تعرف أيضا أنك عندما ضممتني إليك لم يات إلى ذهني قط فكرة أخرى سوى السعادة التي تلمسني. ولا أمل لا معنى له من أن أراك قد تحررت من خطبتك. ولا الشعور بالذنب أن أجعلك تتخلى عن زواج قد يجعلك سعيدا. إني أحبك يا "نوما" مدى الحياة وبدون حسابات! إن السعادة التي قد تجدها بعيدا عني هي سعادتي أيضا.

نظرت إليه برهة وقد بدا عليها الاضطراب. ثم بدون أن تضيف كلمة أخرى خرجت من السيارة وابتعدت على الطريق اللامع بفعل المطر.

عندما رآها "نوما" تختفي بعد منعطف الطريق. زفر وأدار السيارة.

وهو يقود في بطء بهدف الحرص، وكذلك لكي يعطي لنفسه وقتا لترتيب أفكاره، فكر في "مولارينو". ثم على الفور أزاح هذه الفكرة الكريهة وتذكر كلمات "صوفي" المفعمة بحماس فتاة مقبلة على الحياة ومازالت أحاسيسها قوية ومتأججة. تملكه عطف شديد نحوها، تذكر تلك اللحظات التي تقاسماها.

قبل ذلك اليوم لم تكن بالنسبة له سوى مغامرة ليست ذات أهمية كبيرة. ولكن الآن... توقف أمام مزرعة حيث كان ينتظره طفل يعاني التهاب الأذن. بينما كان يعالج الصبي الصغير، فكر في الأذى الذي قد يصيب "صوفي" ووالدها من هذا الرجل الشري. فجأة انتزعه صوت الفلاحة من أفكاره، إنها سيدة بدينة، ملامحها قوية، ولكن لها ابتسامة طيبة.

قالت:

– نعم، نعم بفضل السيد "فيرنون" نجا ابننا.

سأل "نوما":

– كيف ذلك؟

– أصيبت ساقه بكسر. قال الأطباء إنه يعاني سل العظام. تفضل يا دكتور انظر الأشعة!

أخذ "نوما" الأشعة وفحصها بعناية قال:

– نعم تماما، لا شك في ذلك.

– نعم، وبعد علاج السيد "فيرنون" شفي "بيرو"، وهو الآن يجري مثل كل الأطفال. أليس ذلك رائعا؟

اعترف الطبيب:

– هذا عمل جيد. هل تعطيني تلك الأشعة؟

– بكل سرور. فانت أحد أصدقائه...

رنت هذه الكلمات طويلا في أذنه. وهو عائد إلى بيته.

"أنت أحد أصدقائه... أنت أحد أصدقائه" وهو الذي ورط ابنته! إن الندم يخنقه. إنه يحاسب نفسه بقسوة. بذلك خان ثقة "فيرنون" التي وضعها فيه وقد خان في نفس الوقت خطيبته. بالإضافة إلى أنه استغل العاطفة الساذجة لهذه الفتاة الصغيرة التي لم يحسب أهمية لتواجدهما معا بالفندق. ثم إن هناك "مولارينو"... أوقف السيارة فجأة أمام مجموعة من الإوز التي كانت تعبر الطريق غير مبالية وأخذ يتمتم ليخفف عصبيته:

– لم يكن من الواجب قط أن أتواجد معها في غرفة واحدة. إن الإعجاب الذي أشعر به تجاه هذه الفتاة ليس إلا شعورا عابرا.

سأل ضميره: "أليس هذا شعورا عابرا"! هل سيستطيع أن يمحو من ذاكرته تلك اللحظات التي عرفها معها؟ لقد كان هو الأول وهذا الشيء لا يمكن أن يمحى! "هل يأتي الحب مصادفة..."

تجنب بصعوبة حفرة كبيرة، وسأل نفسه: "الحب؟ الحب؟ ولكن..."

عندما وصل "نوما" إلى بيته في هذا المساء كانت ابتسامة غريبة ترتسم على شفتيه.

الفصل الثامن

في هذا الصباح، كانت "ليوني" قد انتهت من ترتيب غرفة الطعام. كانت الشمس ساطعة تعكس ضوءها على أوراق شجرة الكريز أمام الشرفة التي ازدانت بالورد المزدهر عندما دلف "نوما" بخطى واثقة إلى الحديقة اليانعة لمنزل المعالج.

طلب "نوما" مقابلة السيد "ڤيرنون"، على الرغم من هذه الساعة المبكرة، جلس في انتظار الخادمة العجوز وهو ينظر إلى واجهة المنزل الجميلة. لم تظهر "صوفي" في نافذة غرفتها. جاءت الخادمة لتخبره بأن سيدها يدعو الدكتور "أرموري" للدخول.

في مكتبه المؤثث بأثاث كلاسيكي والمكدس بالكتب الطبية كان "ڤيرنون" واقفا أمام طاولة العمل. قال بابتسامة صغيرة عرف بها:

– أهلا يا دكتور.

صافحه "نوما" وبقي واقفا محرجا مما سيطلبه من الرجل الذي يعامله بكل ود.

قال محاولا أن يبدو صوته طبيعيا:

– سيدي: إذا كنت قد جئت لزيارتك في هذا الوقت المبكر، فهذا لسبب بعيد عن الطب.

بدت الدهشة على ملامح "ڤيرنون". أشار إلى أحد المقاعد حتى يجلس "نوما". وجلس في مواجهته، قال عاقدا يديه على ركبتيه:

– إني أسمعك.

استشف "نوما" من صوته الأجش شيئا من التشكك. سأل نفسه فجأة كيف سيكون رد فعل هذا الرجل الغريب الذي بدت عيناه وكأنها تفتش في نفسه. ماذا سيكون رد فعله عندما يطلب منه الزواج بـ"صوفي". أي شخص في موقف "ڤيرنون" كان سيعتبر ذلك شرفا، ولكن لم يكن "نوما" متأكدا من أنه سيفسر الأمر على هذا النحو.

تنحنح قبل أن يبادر بالكلام قائلا:

– بدون شك قد لاحظت أنني أخرج كثيرا مع ابنتك، وكم أجد

سعادة في وجودي معها.

ثم توقف ونظر إلى المعالج. لم تبدر من هذا الأخير أي حركة ولا أي تعبير يكشف عما يفكر. على الرغم من أن شجاعته قد تراجعت بسبب هذا السلوك الفاتر، استطرد "نوما":

– ولقد وجدت– دون أن أنتبه– أن مشاعري تجاهها تتحول من الصداقة إلى الإعجاب الشديد والآن أنا متأكد أنني أحبها.

كان يتحدث خافضا رأسه، وعندما رفعها بعد هذه المقدمة دهش عندما قرأ على وجه الرجل المجعد حدة لم يكن يتوقعها.

استطرد دون أن يترك لـ"ڤيرنون" الفرصة حتى يتحدث:

– قد يدهشك ذلك وأعترف أن الأمر قد حدث سريعا ولكني أعرف نفسي جيدا، وأستطيع أن أؤكد لك أنني أحب ابنتك من أعماقي؛ ولذلك، أردت أن أطلب يدها منك. سأكون سعيدا أن أجعل من "صوفي" زوجتي.

ساد بينهما صمت ثقيل.

طنت حشرة طائرة حبست بين النافذة والستارة التي تحركت بفعل الريح. لقد استرعت انتباه "نوما" هذه التفاصيل إذ أخذ ضيقه يتزايد في ظل هذا الصمت.

أخيرا نهض "ڤيرنون" دون أن ينبس بكلمة. وأخذ يروح ويجيء بطول وعرض حجرة المكتب. دهش "نوما" عندما لاحظ عروق جبهته البارزة وكأنه تحت تأثير انفعال شديد أو غضب عارم. أخيرا استدار وواجه الطبيب الشاب وناداه في هدوء. قال:

– هكذا تريد أن تأخذ مني ابنتي، طفلتي الوحيدة، فرحتي الوحيدة لتأخذها بعيدا عني لتنتزعها من بلدها ووالدها الذي تحكم عليه بأنه لا يساير العصر. لتتركه وحيدا يضمد جراحه.

زفر بعمق واستطرد:

– لا.. لا!

اعترض "نوما" قائلا:

– صدقني.

ولكن قاطعه الآخر:

– لن أتركك تأخذ "صوفي" بعيدا عني بحجة الحب الذي لا يمكن أن يكون حبا قويا، كما أنني متأكد أن مصيره هو الفشل.

قال "نوما":

– كيف لك أن تؤكد ذلك؟

أجابه:

– أنا أعرف ما أقول يا دكتور، إنها ليست من وسطك! ستشعر سريعا بالخجل– في اجتماعاتك مع الأطباء الكبار– من أنك تزوجت من ابنة معالج نكرة يعيش في الريف، بالإضافة إلى العتاب والسخرية التي ستواجهها دائما من زملائك بعد مثل هذا الارتباط.

نهض "نوما" بدوره:

– كل ذلك ليس له وجود في ذهني. أحب ابنتك وأتمنى أن أجعل منها زوجة لي. ولا أعير أي أهمية إلى أي شيء آخر! إني مندهش من هذا العداء الذي تشعر به تجاهي. بينما كنت أعتقد أنني أستطيع الاعتماد على تعاطفك.

هب "ڤيرنون" واقفا. وأجاب:

– كنت متأكدا من ذلك أنك ستتحدث عن العرفان بالجميل! ستتحدث عن علاجك لي، وأنا مدين لك بذلك، ولكن ألا ترى أن العرفان بالجميل شيء آخر غير أن أعطيك ابنتي الوحيدة؟ كما أننا– من الناحية المهنية– أردنا ذلك أم لم نرد فنحن عدوان.

– سيد "ڤيرنون" أرجوك..

– آسف. إنهم زملاؤك من أدانوني. كما أنني في عيونهم لست سوى مشعوذ. وفي عينيك أيضا. ومن ناحية أخرى هل لو لم تكن ابنتي على هذا النحو من الجمال هل كنت ستعالجني بكل هذه العناية؟

وثب "نوما" من مكانه وقد استشعر الإهانة في جملته. وصاح عاقدا قبضتي يديه:

– أرجوك يا سيدي لا تستمر في حديثك هذا!

– الحقيقة تجرح دائما يا دكتور.

دون أن يسمعه قال "نوما":

– الله يعلم أنني قد جئت لمقابلتك وقلبي يحمل لك الصداقة وكلي ثقة بك ولكنك خذلتني بكلماتك الجارحة. لكن على الرغم من كل الاحترام الذي أكنه لوالد "صوفي" لست أدري إذا كنت سأستمر في الاحتفاظ بهدوئي.

قال "ڤيرنون" في سخرية وقد لمعت عيناه السوداوان:

– بهدوء يا دكتور! حاول أن تسيطر على أعصابك، أرجوك. إنه أنت من جئت لتطلب مني شيئا كما يبدو لي. إذن اسمعني جيدا.

توقف ونظر إلى المكتبة التي كانت أمامه في تفكر، وكأنه يبحث بين كتبه عن وحيه.

زفر بعمق ثم استطرد:

– أنا أكبر منك سنا، بالإضافة إلى أنني بحكم عملي لي خبرة في النواحي الإنسانية التي أنت بعيد عنها؛ لذلك، أؤكد لك أنه لا أنت ولا ابنتي ستكونان سعيدين بهذه الزيجة.

– ولماذا هذا التأكيد؟

– اسمع، أشياء كثيرة تفصلكما يوما بعد يوم، ستجعلكما عدوين.

ساد الصمت من جديد. ثم قال "نوما" أخيرا:

– إني متأكد من نيتك الحسنة، ولكني أريد أن أتزوج ابنتك وسأحقق ذلك سواء أردت أم لم ترد.

رفع "ڤيرنون" كتفيه كأنه نمر يستعد للهجوم صاح:

– أبدا. أبدا هل سمعت؟ لن أدعك تتزوج ابنتي ولن يثنيني شيء عن هذا القرار.

فجأة فتح الباب، ظهرت "صوفي" بفستانها المنقوش بالورد. كانت شاحبة، وعيناها مفعمتان بالعزم. نظرت إلى والدها وقد دهشها هذا القرار الذي أصابها بخيبة أمل فاقت كل توقعاتها. وقالت بصوت واضح:

– بلى يا أبي! هناك شيء سيجعلك ترجع عن رأيك. لقد فاجأنا السيد "مولارينو" بالأمس في أحد الفنادق. كنا متعانقين.

صاح "ڤيرنون":

– ماذا تقولين؟

تقدم نحو ابنته عاقدا قبضتي يديه، وعلى وجهه كل علامات الغضب، انتابها خوف شديد من هذا الوجه الذي تحول إلى وجه متوحش لم تره قط. لكنها أرادت أن تدافع عن حبها الذي رأت أنه يوشك أن يتوج بنهاية سعيدة فاقت كل آمالها.

– أقول إننا متحابان. بتحرر وبدون تعقيد وهبت نفسي له...

عندما نظر إليها "ڤيرنون" بعينين مذعورتين، استطردت:

– إني ملك له. هل تفهم يا أبي؟ لقد أخذني، أنا الآن امرأته... امرأته.

نهض وصاح بانفعال شديد:

– هل جرؤ... هل جرؤ...

– لقد كذبت عليه عندما أخبرته بأنه ليس أول رجل في حياتي.

صاح "ڤيرنون" وقد أفقده الغضب صوابه:

– إنك لست سوى فتاة... كلبة!

صاح "نوما":

– إني أمنعك.

استدار "ڤيرنون" نحوه. وقال:

– إني أحتقرك. يا لك من بائس.

قالت:

– أبي أرجوك توقف عن ذلك؛ لقد أفقدك الغضب صوابك.

لم يسمعها واستمر في ثورته.

– أنت قاصر. لن أوافق.

– هل تفضل أن أكون عشيقته في الظلام مع كل النتائج التي ستترتب على ذلك؟

صمت "ڤيرنون" تماما أمام هذه العبارة الوجيزة التي لخصت الفضيحة التي يتعرض لها في هذا المجتمع الريفي. حرك نفسه ليسقط في المقعد ورفع رأسه بين يديه معترفا بهزيمته.

الفصل التاسع

بعد ذلك عندما أرادت "صوفي" أن تتذكر الخمسة عشر يوما التي سبقت زفافها لم تستطع أن تجد في ذاكرتها سوى عصبية والدها وحنان "نوما"، واضطرابها بسبب الاستعدادات للزفاف التي اضطرت أن تقوم بها بمفردها.

كان على "نوما" أن ينتهي في نهاية الشهر من ترتيب انتقاله إلى "كازابلانكا". حيث حصل على منحة دراسية طبية من أحد المعاهد الطبية في "المغرب" التي أرادت الاتصال بأحد أطباء "فرنسا" الشبان الواعدين. ذلك لأنه بزواجه من "صوفي" قد تخلى عن العمل في مستشفى مرموق في "باريس". قال لها:

– ستكون رحلة شهر العسل، سترين كيف سنستمتع تحت أشجار النخيل.

ضحكت. إنها تحبه كثيرا حتى إنها لم تستطع أن تقول شيئا عن هذا الزواج الذي لا يوافق عليه والدها حتى إنه رفض الحديث عنه مع كائن من كان بعد أن صمم على أن يتم في أضيق الحدود. أما "نوما" فلم يكن يفكر إلا في هذا اليوم الذي سيتم فيه الزفاف. قد أصبح العداء الذي يظهره تجاهه والد "صوفي" غير محتمل لقد أراد أن يهرب بسرعة من هذا الركن في "بورجوني".

ذات صباح صحو تزوج "نوما" و"صوفي" في كنيسة صغيرة. لم يكن هناك سوى أربعة أشخاص بالإضافة إلى العجوز "ليوني".

تم الزواج في هدوء لم يقطعه سوى تغريد العصافير، وشكرت "صوفي" الله. كانت ترتدي فستانا رديا بسيطا جدا أضفى عليها رقة جميلة.

عندما ألبسها "نوما" خاتم الزواج، ارتعشت من شدة التأثر كأنها شجرة شابة تهتز بفعل الريح وتميل نحو الرجل الذي أصبح زوجها. وفي ذات اللحظة سألت نفسها: "ألن يندم على تركه خطيبته الثرية؟"

في الواقع، لقد أخبرها "نوما" بإيجاز أنه قد أخبر ابنة البروفيسور

"أندريو" وأخبرها بأنه لا يريد "صوفي" أن تنطق باسمها مطلقا.

وكانت قد خضعت إذن لرغبة زوجها الذي ضحى من أجلها، بكرم يانع، بوظيفة مرموقة. لقد وعدت نفسها ألا تفكر بعد ذلك أبدا في هذه السيدة المجهولة التي أخذت مكانها ولكن هيهات، إنها لم تكن متأكدة من أنها قد أخذت مكانها حقا في قلبه. هل يحبها "نوما" بصدق أم أراد فقط منع الفضيحة؟

هذا السؤال المزعج الذي لا يكف عن التردد على ذهنها. ولكن كانت "صوفي" تحاول إبعاده بينما كان سلوك "نوما" يبرهن على حبه.

لقد أكد لها قائلا:

– لماذا تفكرين في أنك لا تستطيعين أن تكوني زوجة لي؟ سنكون سعيدين.

رددت في نفسها: "سنكون سعيدين، إني متأكدة من ذلك" ودعت ربها الذي أراد لها هذا القدر الكبير من السعادة.

انتهت مراسم الزواج واتجها حيث كان "نوما" يوقف سيارته. بعد ذلك سيتجهان إلى "آلوكس". كان الجو جميلا، فقد أمطرت بالأمس. وذكرتها رائحة الأرض المبتلة بمياه الأمطار بمشاعر جميلة عاشتها من قبل...

انتزعها من أحلامها صوت والدها وقد وضع يده على كتفها. قال دون أن ينظر إليها:

– وداعا يا ابنتي. اذهبي مع طبيبك وتذكري دائما أنني قد حذرتك من مستقبل بدون سعادة. ستفهمين بعد قليل مدى الحزن الذي سيصيبك عندما تتزوجين رجلا ليس من عالمك.

رأته بعد ذلك يبتعد منحنيا تطأ قدماه حشائش الحديقة دون أن يعي بوجودها.

قالت "ليوني" في أذنها. وهي تمسح عينيها بمنديلها الأبيض الكبير:

– إلى اللقاء يا صغيرتي. حاولي أن تأتي لترينا يوما ما، أدعو من كل قلبي أن يكون والدك مخطئا وأن تحظي بالسعادة.

عندما أصبحت بمفردها مع ذلك الرجل الذي تحبه، استندت "صوفي"

إلى ذراعه. قالت رافعة عينيها الصافيتين مثل سماء الصيف الجميلة.

– إني واثقة يا عزيزي! أنت محق، أعرف ذلك وهذا يكفيني.

وبعد ذلك اختفى كل شيء حولها عندما مال إليها "نوما" بوجهه.

وبعد ذلك سلكا طريقهما في هذا الجو الجميل في السيارة الرينو. التوقف بين المسافات في الفنادق الصغيرة وضحكاتهما ثم وصولهما إلى "نيس" حيث استقلا الطائرة بوينج ٧٤٧.

وصلا إلى الأراضي المغربية إلى "كازابلانكا"، مدينة جميلة، في الفجر، ليصلا إلى الفندق الذي حجزا فيه غرفتهما. كان عليهما المرور بالمدينة حيث أهرامات من الخضر، وكوم من الفواكه والموالح بألوانها الزاهية، وباقات الورد متعددة الألوان، لقد أعجبا كثيرا بالسوق المغربية مع شعورهما بأنهما يعيشان حدوتة عربية في حديقة من حدائق ألف ليلة وليلة.

كل شيء كان مثيرا بالنسبة لهما. النساء المحجبات بزيهن الجميل، والعجائز يجلسون في مجالسهم في الشمس. والحمارون يسوقون أمامهم الحمير الصغيرة، بائعو التمائم والتعويذات، الأطفال الذين يرتدون الملابس ذات الألوان الزاهية. السيارات متعددة الماركات المختلطة بهذا الحشد الذي يسير فيه أصحاب الملابس الأوربية بجانب أصحاب الجلابيب البيضاء. إنها مدينة ذات طابع خاص بسمائها الصافية وشوارعها الواسعة التي تصفها أشجار النخيل.

قالت "صوفي" عندما أصبحا في حجرتهما:

– لابد أن الحياة رائعة في هذه المدينة.

دخلت رائحة التوابل من خلال النافذة المفتوحة وكذلك رائحة الشاي، وأصوات تنادي بكل اللهجات.

اقترب "نوما" من زوجته وأخذها بين ذراعيه. قال في سعادة:

– لقد بدأت رحلة شهر العسل يا عزيزتي. أشعر أن على هذه الأرض الدافئة سنعرف طعما رائعا للسعادة، أكثر مما كنت سأشعر بها إذا بقينا في "فرنسا".

بقوله هذا، ألا يريد أن يقنع نفسه بأنه بفسخ خطبته من ابنة رئيسه

لن يندم على شيء، وأن الوظيفة التي لم يكن يستطيع أن يحصل عليها بدون مساندة "أندريو" لا تستحق الأسف؟ هل فكرت "صوفي" في ذلك؟

احتضنته في حنان ورددت:

– نعم سنعرف سعادة لا تنسى.

جمعتهما قبلة طويلة.

سالته وهي تستند إلى إطار النافذة حيث تستطيع أن ترى ميدان "فرنسا" الغارق في الشمس:

– هل سنذهب صباح غد؟

– نعم في الفجر حتى لا نتعرض للحرارة الشديدة.

أخرجت "صوفي" من حقيبتها رداء على مقاسها كان والد "نوما" قد أهداه لها بمناسبة الزفاف مع كلمة فاترة. تأملت فرشاة شعرها في صمت ثم استدارت نحو زوجها وسالته:

– إني أسال نفسي كيف يتصورني والدك؟ وكيف يفكر في زواجنا؟

أجابها:

– منذ وفاة والدتي. هناك تباعد بيني وبين والدي حتى إنني لم أهتم بأن أبلغه بمشروع زواجنا إلا بعد أن حددنا موعد إتمام الزواج، وإني متاكد أن ذلك لم يدهشه.

لم يعترف لها بأن والده قد وجه إليه كلمات قاسية قائلا إنه كان يامل لابنه زواجا مرموقا. اتجهت "صوفي" نحو التسريحة. بدأت تمشط شعرها مفكرة. ثم قالت:

– لابد أنك محق. ولكني لا أستطيع أن أعرف رأي رجل مشهور بعقله مثل والدك في وسطه الدبلوماسي وأخشى ألا أروق له.

وضع "نوما" رباط العنق الجديد على السرير وذهب إلى "صوفي" واحتضنها ضاحكا.

– لقد تزوج أبي فتاة شابة فقيرة ولكنها فاتنة، وكان لها قلب حان، عاشا معا في سعادة. عندما سيتعرف عليك لن يجد شيئا ليقوله لي. كما أنه يتبع قاعدة هي ألا يحاول التاثير في قراراتي وفي هذا الشان

على الأخص.

قالت "صوفي" دون أن تنظر إليه:

– هل تستطيع أن تؤكد لي أن والدك لم يكن يفضل زوجة لك مثل ابنة البروفيسور "أندريو"؟ لابد أنه يعرفها وأنا واثقة بأنه كان يراها مثالية لك. كيف سيفكر في التغيير الذي أحدثته؟ أعترف لك بأن ذلك يقلقني قليلا.

– إنه يكذب. قال لها متظاهرا:

– أنت تتفوهين بالحماقات يا عزيزتي. سيسعد أبي عند رؤيتك، وإني متاكد أنه قد نسي بالفعل الآنسة "أندريو". كفي عن تعذيب نفسك بافكار ليست موجودة، واستمتعي بيومنا الأول في "كازابلانكا".

انبعث من النافذة المفتوحة صوت الأحاديث العربية مختلطا بموسيقى عسكرية بعيدة ليست غريبة عليها، بينما ارتفع صوت المؤذن ينادي للصلاة.

قالت ملتفتة إلى "نوما":

– أنت محق: إني حمقاء لأني أعذب نفسي، بينما تبدو الحياة عذبة هنا. وهانا الآن أقرر أن أعيش دون التفكير في الماضي.

لم يعكر عاطفتهما الحميمة أي هاجس في هذا المساء.

الفصل العاشر

في "مكناس" هذه المدينة التي تتسلط عليها الشمس بشدة وقت الظهيرة كانت السماء صافية تماما.

في صحن الڤيلا البيضاء الكبيرة كانت النافورة تبعث بعض الرطوبة التي تلطف الجو. غاصت "صوفي" في مقعدها الهزاز تنتظر عودة "نوما".

منذ شهرين يسكن دكتور "نوما" و"صوفي" هذه المدينة المغربية، لقد وافق على هذه الوظيفة المؤقتة لمدة عام في مستشفى "مكناس" هذه المدينة الجامعة لأجناس مختلفة والتي لم تتعودها "صوفي" بسهولة.

لقد اكتشف "نوما" هذه الڤيلا الجميلة التي ترتفع وسط حديقة مزدهرة ليست بعيدة عن الحي السكني. في هذه الڤيلا التي بها كل وسائل الرفاهية كانت "صوفي" تعيش في حلم جميل. كانت في نشوة حبها الذي يبدو كل يوم أكثر جمالا. أحيانا كانت تخاف من هذه السعادة الغامرة، إنها لا تعيش سوى في انتظار اللحظات التي يعود فيها "نوما" من المستشفى ليحتضنها بدفء.

إنه جميل جدا وفاتن جدا مما كان يثير قلقها. كانت تفكر: "الممرضات اللاتي يحطن به والمريضات اللاتي يعالجهن... هناك بالتأكيد أوربيات فاتنات يقعن تحت تأثير سحره".

عندما كانت تفكر في ذلك كانت الغيرة تساورها. في هذا اليوم اتخذت قرارا. الآن وقد استقرت في منزلها وأصبح لها خادمان هما "علي" و"عائشة" فهي تستطيع أن تعتمد عليهما في العناية بالمنزل، فقد كانت ترغب في الاهتمام بأطفال المستوصف. سيكون "نوما" سعيدا دون شك بأن يرى زوجته تريد أن تصبح نافعة كما سيبعد وجودها المنافسات المحتمل وجودهن.

سمعت صوت خطوات "نوما":

- "صوفي" عزيزتي!

أسرعت إليه. في هذه اللحظة أعلن "علي" أن الغداء جاهز. وصلا

إلى غرفة الطعام التي غطت نافذتها ستارة تتخللها أشعة الشمس الحارقة.

على مفرش من الألوان الزاهية، وضعت أدوات الطعام. كان "نوما" يبدو سعيدا أكثر من المعتاد.

- أحب كثيرا هذا البلد. الحياة هنا جميلة جدا.

بينما كان يتذوق البطيخ أضاف مبتسما:

- هل تعرفين يا عزيزتي من قابلت هذا الصباح في المستشفى؟

- لا، كيف تريدني أن أعرف؟ أنا لست عرافة.

استطرد ملاحظا دهشتها:

- رئيسي!

- أي رئيس؟

- إنه البروفيسور "أندريو". لقد وصل فجأة. إني سعيد جدا بزيارته لا يوجد أي ظلال على علاقتنا.

لقد قال هذه العبارة الأخيرة عفويا. فشعرت "صوفي" بالم. هذا يعني أنه كان هناك سوء تفاهم بينهما (وزواجه بها هو سبب هذا الخلاف بالتأكيد). مما أثر في "نوما" ولكنه لم يرد أن يذكر لها ذلك حتى لا تتألم.

ترددت قليلا ثم سألته:

- كنت على خلاف معه إذن؟

بدا عليه الارتباك، أجاب بعد قليل:

- ليس مهينا، لكن هل تنسين أنني كنت خطيب ابنته؟

- هل غضب منك لأنك تزوجتني؟ خاصة لأني ابنة معالج.

ارتعش صوتها. ارتشفت جرعة ماء.

أجابها عن سؤالها في هدوء:

- "أندريو" ليس رجلا حقيرا.

تابعا غداءهما في صمت. ساد بينهما ضيق للمرة الأولى منذ زواجهما. سألت "صوفي" نفسها إذا لم يكن "نوما" نادما على عدم زواجه من "ناتالي أندريو".

سالته وقلبها يدق بشدة:

– هل حدثك البروفيسور عن ابنته؟

أجابها:

– لم نتحدث سوى في مهنتنا.

إجابة "نوما" المختصرة جعلتها تعتقد على الفور أنه لا يقول الحقيقة. كانت تريد أن تسأله أسئلة أخرى ولكنها فضلت أن تغير مجرى الحديث، قالت:

– عزيزي... قررت أن أساعدك في المستوصف.

– كيف؟

– اليوم الذي تزور فيه الأطفال. أستطيع أن أكون عونا لك.

بدا "نوما" سعيدا بهذا الاقتراح، وانتهى الغداء وقد زال التوتر.

كل يوم بعد الغداء كان "نوما" يأخذ قسطا من الراحة. للمرة الأولى تخلى عن هذه العادة وبدلا من أن يتجه إلى غرفته قال لها:

– عزيزتي ساتركك، إن "أندريو" ينتظرني.

سألته في تردد:

– هل سيبقى هنا لأيام عديدة؟

قال:

– أعتقد أنه سيغادر غدا. لقد جاء خصيصا من "كازابلانكا" ليراني.

على عتبة الحجرة استدار:

– في الواقع سأتناول العشاء معه. لا تنتظريني إذن.

أضاف وهو يقبلها:

– لن أتاخر.

ابتسمت إلى زوجها بينما كانت تشعر بغصة، لقد كان شيئا طبيعيا أن يتناول الرجلان العشاء معا وألا تتواجد "صوفي" أولا، لأن وجودها سيسبب الإحراج، وثانيا، لأن "نوما" لا يريد أن يقدم زوجته إلى الرجل الذي كان من المفترض أن يكون حماه.

لقد شعرت في نبرة زوجها بنشاز. بدا لها وكأنه كان يريد أن يضيف إلى كلماته سبب إبعادها عن هذا العشاء. رأته يبتعد بخطوات سريعة.

بعد لحظات سمعت صوت محرك السيارة.

في الساعات التالية فقدت "صوفي" هدوء بالها. تمددت على سريرها ولكنها لم تستطع أن تنام.

طنين المروحة أحدث ذبذبة امتدت حتى أعصابها. "مكناس" مثل كل المدن المغربية تحتوي على مدينتين: المدينة الأوربية، والمدينة العربية.

اعتادت "صوفي" أن تتجول بين متاجر البائعين الأفارقة. على الرغم من ذلك، توجهت في هذا اليوم إلى دير الكاثوليكيات لقد ذهبت لزيارتهن منذ وصولها. الراهبة الأم، والراهبات الأخريات كن في غاية الكرم وقد قالت لها الراهبة الأم:

– إن زوجك محل تقدير المغاربة، الجميع يتحدثون عن طيبته وتفانيه في عمله، إن دكتور "أرموري" يعرف كيف يتعامل مع مرضاه ويكسبهم الثقة به.

وجدت كلمات الراهبة صدى في قلب "صوفي". كانت فخورا أن ترى كم يقدرون زوجها. أخبرت الراهبة بأنها ستهتم بالأطفال. ثم سألتها إذا كانت تستطيع أن تذهب لتصلي في الكنيسة. في هدوء المذبح، شعرت بأنها في حديث إلى الله.

إن رائحة الورد الذي يزين الأركان، المختلط برائحة البخور أعطاها جو العيد.

جثت على ركبتيها أمام تمثال السيدة العذراء، تصاعد إلى نفس "صوفي" دعاء حار.

– شكرا يا ربي على السعادة التي منحتني إياها.

في أحيان كثيرة أشعر بأنني لا أستحق كل هذه السعادة... أنت كريم... أبعد عني ما يهدد سعادتي. أريد أن أكون نافعة للبائسين في هذا العالم، وأريد أن أثبت لك في كل يوم أنني غير ناكرة لفضلك عليّ.

بعد ربع ساعة تركت "صوفي" الدير وقد اختفى قلقها. شعرت بأن قلبها مفعم بالثقة والفرحة. عادت إلى الڤيلا سيرا على قدميها.

سلكت شارعا مزدحما يشرف على ميدان سوق البلح، عندما لمحت

فجأة سيارة "نوما" اقتربت تلقائيا حتى يراها زوجها ويوصلها. عندئذ رأت وجها آخر لرجل شعره رمادي يجلس عن يمينه. فكرت وهي تتوقف أن يكون البروفيسور "أندريو" لكنها شعرت فجأة وكان يدا تخنقها عندما رأت في المقعد الخلفي فتاة جميلة شعرها أسود ترتدي فستانا أزرق فاتحا.

"ناتالي أندريو" خطيبة "نوما" السابقة! لا يمكن أن تكون واحدة غيرها.

شعرت "صوفي" بأن السماء تتقوس فوق رأسها، كادت تترنح. كانت السيارة قد مرت. وصلت إلى الڤيلا كأنها منومة مغناطيسيا، لاحظت الصغيرة "عائشة" شحوبها.

- هل سيدتي مريضة؟

كان ألمها كبيرا حتى إنها كانت تبحث عن الكلمات لتخبرها بأنها متعبة قليلا.

لاذت بغرفتها وأخذت تبكي. في هذا المساء لم تتناول "صوفي" سوى قدح شاي، هناك فكرة تسكنها. لقد أتت "ناتالي" مع والدها ولم يشر "نوما" لوجودها ولكن السعادة التي بدت على وجهه تنم عن مدى تاثير هذه الزيارة فيه. لم تكن زيارة البروفيسور هي التي جعلت عينيه تكتسبان هذا البريق.

رقدت في سريرها مبكرا وحاولت أن تقرأ في انتظار عودة زوجها. لكن هيهات، إن تفكيرها يذهب دائما إلى "ناتالي".

أخيرا سمعت صوت محرك سيارة "نوما" نظرت إلى المنبه. كانت الساعة الحادية عشرة والنصف.

فتح الباب بالطابق السفلي وسمعت خطواته. سيدخل "نوما" بعد قليل. أغلقت عينيها وتظاهرت بالنوم. كانت متأثرة حتى إنها لا تستطيع أن تساله السؤال الذي يحرق شفتيها بدون انفعال.

غدا سترتب أفكارها وستكون أكثر هدوءا لتساله. سمعته وهو يتجه مباشرة إلى الحمام. سمعت صوت الماء وشعرت بأن "نوما" يتعمد أن يمتد به الوقت في الحمام.

أخيرا خرج يرتدي البيجاما. شعرت به "صوفي" يميل نحوها. إنه يعتقد أنها نائمة. طبع قبلة على شعرها. ثم تمدد إلى جوارها. بعد قليل سمعت صوت تنفسه مما يشير إلى أنه قد نام.

نامت بعده بوقت طويل في نوم ثقيل ازدحمت فيه الكوابيس.

www.rewity.com مـــرمـــوريـــة

الفصل الحادي عشر

منذ عدة أيام قبل ذلك هبطت الطائرة البوينج التابعة للخطوط المغربية بعد الظهر، وبين أفواج السائحين الذين جاءوا لزيارة "المغرب" فتاة فرنسية أنيقة وجميلة، واثقة بنفسها. حملت حقائبها إلى تاكسي قادها على الفور إلى فندق "منصور".

بسرعة خصص لها موظف الاستقبال غرفة فاخرة وطلب منها أن تسجل اسمها. بيد ثابتة كتبت "ناتالي أندريو" هذه المسافرة الفاتنة ذات الثلاثة والعشرين عاما، شعرها أسود فاحم وعيناها جريئتان، لا يمكن الا يلاحظهما أحد. بدلت ملابسها بسرعة وقررت أن تنزل إلى التراس.

كانت شمس الغروب تضفي لونا ساحرا على "كازابلانكا". اختارت "ناتالي" طاولة قريبة من خيمة يتسرب منها ضوء الشمس.

كان هذا هو مكان لقاء المسافرين حيث يقدم لهم المشروبات المتنوعة حتى الشاي كما طلبته "ناتالي" مثلجا.

كان جيرانها القريبون أمريكيين. ينظرون في إعجاب للمشهد الذي أمامهم بينما أمسك أصغرهم سنا آلة تصوير ليلتقط صورة لما أعجبه.

طافت متسولة عجوز ترتدي شالا قديما مقطعا وخفا قديما بجراة كانت تتوقف أمام كل طاولة تطلب المال. تسمرت فجاة أمام "ناتالي" التي كانت أكثر الزبائن أناقة، لأن ملابسها كانت تحمل لمسات "باريس". العين المدربة للمرأة العجوز لم تخطئ قط.

– أوه يا عصفورتي الجميلة. هل أقرأ لك الطالع. الحب.. الحب.

أمسكت العجوز بيد "ناتالي" ودققت النظر في خطوط كفها في صمت وقالت:

– في هذه اللحظة تغرد السعادة في قلبك. لأنك جئت إلى "إفريقيا" لتجدي من تحبين.

ارتسمت ابتسامة سعيدة على شفتي الفتاة الجميلة.

– شكرا.. لك نظرة صائبة.

ضحكت السيدة العجوز في فخر.

– لكي تجديه يجب أن تتجهي للشمال.

– هذا صحيح.

– انتبهي، من تحبين ليس حرا.

سحبت "ناتالي" يدها:

– من قال لك ذلك؟

– أرى ذلك... إنه متزوج.

سألت "ناتالي":

– إنه لا يحب زوجته، أليس كذلك؟

بلمحة أدركت العجوز ما يجب أن تقول للفرنسية حتى تنتزع منها مبلغا كبيرا.

هزت رأسها:

– في الواقع يا عصفورتي الصغيرة إنه لا يحب زوجته ولا يفكر إلا فيك.

مرتعشة صاحت ابنة البروفيسور "أندريو":

– لم يكن يريد أن يتزوجها، أليس كذلك؟

– هذا أكيد. ولكي تحصل عليه سحرته.

– كيف؟

أجابت العجوز التي تعرف أعمال السحرة في بلادها:

– بالأعشاب.

بينما كانت تسمع ذلك، واتت "ناتالي" فكرة كأنها البرق.

"ألم يتزوج "نوما" ابنة معالج؟ مثل هذا الرجل يجب أن يكون على معرفة بأشياء غريبة ليشفي المرضى، الثعلب العجوز عرف كيف يمارس شعوذته ليجعل من "نوما" زوجا لابنته.

لكن ألا توجد وسيلة أخرى تبعده عن زوجته؟ ألا يوجد ما يبعد نهائيا تلك التي تقف حائلا بينها وبين "نوما".

إن في هذا البلد الإفريقي يمارس السحرة أشياء مذهلة. مالت "ناتالي" نحو العجوز.

– ماذا ترين غير ذلك؟

اتخذت عيناها السوداوان تعبيرا بالفزع وقالت:

– هل تفكرين في شيء... شيء خطير... سيئ جدا...

ارتعشت الفرنسية:

– ماذا تقصدين؟

– الكراهية تملأ قلبك وفي هذه اللحظة تريدين لغريمتك الموت.

احمر وجه "ناتالي" وقد شعرت بأن أفكارها مكشوفة، وقالت:

– تحدث الحوادث كل يوم. قد يكون ذلك قدرا.

إن في نبرتها معنى خفيا استشفته العجوز التي مالت نحوها. قالت:

– قد يمكننا مساعدتك.

عندما قدمت إليها يدها فتحت "ناتالي" حقيبتها وأجزلت لها العطاء. فزعت الغجرية أمام هذا المبلغ السخي. أمسكت العملات الورقية في جشع.

– يا عصفورتي الصغيرة إنني آتي إلى هنا كل مساء إذا أردت رؤيتي ستجدينني، ليباركك الله.

بقيت "ناتالي" لحظات طويلة تفكر. لقد قالت الغجرية: "يمكننا مساعدتك" أليست هذه دعوة؟ لقد غادرت "باريس" بعد سفر والدها بثمان وأربعين ساعة حيث ذهب إلى "الرباط" لرئاسة مؤتمر طبي حول الأمراض الاستوائية. كانت تعرف أنه سيذهب على الفور إلى "مكناس"، قالت لنفسها: لقد نفى "نوما" نفسه في هذا المكان، سأذهب إذن لألحق بأبي وبالتالي سأرى "نوما".

كانت خطتها بسيطة ولكنها غير محددة. لم تكن تعرف كيف سيكون رد فعل البروفيسور "أندريو" عندما يراها قد لحقت به. على أية حال لقد قررت أن تذهب لتجده مباشرة في "مكناس".

سيبقى في "الرباط" يوما آخر. مازال أمامها أربع وعشرون ساعة لزيارة "كازابلانكا" وترى غدا الغجرية.

بعد عشاء سريع في مطعم الفندق صعدت مباشرة إلى حجرتها ونامت على الفور.

في هذه الليلة استغرقت "ناتالي" وقتا ليوافيها النعاس استدعت الكثير من الذكريات، إنها الآن على أرض "إفريقيا"، قريبة جدا من الرجل الذي فضل عليها امرأة أخرى. استدعت الماضي الذي بقي محفورا في ذاكرتها.

بمجرد أن شاهدت "نوما" لأول مرة في مكتب والدها بمظهره الرياضي وثقته بنفسه، إنه حتى لم ينظر إليها. كل ذلك لفت انتباهها.

مازال صوته يرن في أذنيها. لقد تجاهل وجودها مما أثار غيظها هي الفتاة الجميلة المدللة ابنة البروفيسور "أندريو" التي اعتادت مجاملة الرجال.

مغتاظة قالت لنفسها: "يجب أن أهزمه".

تذكرت كيف قابلته في أحد أيام الشتاء الباردة مصادفة في صالة العمارة التي تسكنها وتقدمت لمقابلته.

– ألا تتذكرني يا دكتور؟ أنا "ناتالي أندريو".

اعتذر قائلا:

– أرجو المعذرة يا آنستي.

– هل تصعد لمقابلة والدي؟

– حقيقة طلب مني البروفيسور أن أقابله.

– في هذا الحال دعني أوصلك.

فتحت باب المصعد ووصلا إلى الشقة.

دلفت مباشرة إلى مكتب والدها وقالت:

– أبي لقد أحضرت لك تلميذك المفضل.

أجاب "نوما" معترضا:

– أوه! أنا لست سوى طبيب بين الآخرين الذين جميعهم تحت أمر البروفيسور.

ابتسم البروفيسور ملاحظا مرح ابنته وقال:

– وإذا قلت لك إنها الحقيقة يا "أرمورّي". أنت بالفعل أفضل تلاميذي.

أجاب "نوما":

– وأنا فخور بذلك.

وبدون خجل صرحت "ناتالي":

– أبي، سنتناول العشاء يوم الأحد مع آل "مورفيل" في مطعم "لاسير". لماذا لا ندعو الدكتور؟

على الرغم من اعتذار "نوما" فقد أصر البروفيسور على دعوته وأخيرا أذعن "نوما" أمام إلحاح "ناتالي".

بعد العشاء، اقترحت "ناتالي" الذهاب إلى أحد الملاهي الليلية. في سعادة طلبت من "أرموري" الرقص قائلة:

– ارقص معي.

في حلبة الرقص كانا متعانقين، قالت له بسفور:

– "نوما" هل تسمح لي أن أناديك باسمك؟

أذعن، فاستطردت:

– هل تعرف يا "نوما" أن ما أشعر به تجاهك ليس مجرد إعجاب؟

كانت تنظر إليه في جرأة، أي رجل في مكان "نوما" لما بقي ساكنا أمام هذا الاعتراف. بعد قليل قالت:

– لقد قابلتك في الوقت الذي أعاني فيه أزمة عاطفية خطيرة. لقد أحببت رجلا ليس جديرا بحبي. اعتقدت أنه صادق ولكنه كان مخادعا. إني آسفة لأني اتبعت هوى قلبي، لكني عندما قابلتك غيرت حكمي الذي أطلقته على الرجال جميعا. أعرف أنك إنسان طيب ونادر جدا في هذه الأيام...

في هذا المساء وهي تودعه طلبت منه أن يتقابلا يوم السبت أمام السينما حيث يعرض فيلم تود مشاهدته. اختارت مكانا منعزلا عن باقي المتفرجين.

ولقد أصابها سلوك "نوما" بخيبة أمل. لقد اعتادت المغازلة الجريئة من الرجال الذين كانوا ينبهرون بجمالها. كانت تنتظر أن يمسك بيدها. لكنه ظل ودودا ومتحفظا.

هذا السلوك قد زاد من رغبتها في التحدي. عندما خرجا من السينما كان الجو باردا، اقترح عليها تناول شراب. وأثناء مرورهما أمام متجر

للتحف الإيرانية، توقفت لتتامل تمثالا صغيرا.

سألها:

– هل تحبين التحف الشرقية؟

ردت عليه بالإيجاب. فقال:

– عندي بالمنزل تمثال لآلهة صينية. سيسعدني أن أهديه لك.

اعتذرت في أدب ولكنها لم تتاخر عن أن تركب التاكسي الذي أوقفه واتجه إلى الحي اللاتيني حيث يسكن في شقة صغيرة مؤثثة بذوق رفيع.

كانت النار مشتعلة في المدفأة. مدت يديها إلى الحرارة اللطيفة بينما ذهب "نوما" ليحضر التمثال الصغير.

كانت "ناتالي" جالسة في أحد المقاعد وكانت تتحدث في مرح. في دفء المكان خلعت معطفها، بقي "نوما" على تحفظه وفجاة اتخذت قرارا، التفتت نحوه ونظرت إلى عينيه وقالت:

– قبلني...

تردد (إنه لا يريد أن يفسد هذا الموقف لدى ابنة معلمه). أضافت:

– أريد أن أعرف إذا كنت تجيد التقبيل مثل صديقي السابق.

دون أن تنتظر إجابته أطبقت بشفتيها على شفتيه. كان على "نوما" أن يكون قديسا إذا أراد المقاومة. انزلق الاثنان متعانقين على الأريكة. كم كانت جميلة ومثيرة، وتحابا.

بعد قليل عندما عاد إليهما توازنهما وأفاقا من نشوتهما. قالت "ناتالي":

– أنت تروق لي يا "نوما"... أعتقد أنني لا أستطيع أن أستغني عنك. بما أني لا أحب المواراة ولا الكذب سأعترف بما حدث لأبي. وسيكون سعيدا جدا أن تكون زوج ابنته.

وهكذا بعد يومين كانا قد خطبا رسميا، وسعد البروفيسور "أندريو" كثيرا، الذي كان يقدر "نوما" كما كان قلقا بشان تهور ابنته.

وبالتاكيد لقد سعدت "ناتالي" بفكرة الزواج، كما أن ذلك سيسمح لها بمزيد من الحرية حتى تخرج دون أن تخضع لأسئلة والدها التي

تضايقها عندما كانت تخرج مع بعض أصدقائها لقضاء السهرات في الملاهي الليلية.

إن "نوما" يروق لها وكانت سعيدة بلقائهما في شقته وعلى الرغم من ذلك كانت لا تضحي أبدا من أجله بنزهة أو خروج، بالإضافة إلى أنها كانت تحب أن تسمع غزل الرجال المتيمين، ولا تجد ضيرا في الاستسلام لهذه المغازلات.

من ناحية أخرى، لقد أطالت رحلتها البحرية هذه لأنها وقعت تحت تأثير غزل "كارلو"، ذلك المغامر الثري. وربما كانت ستفسخ خطبتها مع "نوما" بسببه لو لم تتبين أن هذا الرجل يعيش حياة المليارديز العجوز، وأن المال هو الشيء الوحيد الذي يسعى خلفه.

مجروحة ومهانة قطعت هذه العلاقة الغرامية وعادت إلى "فرنسا" لتعرف أن "نوما" الذي انقطعت أخباره عنها منذ أسابيع قد تزوج من ابنة معالج.

حل غضبها محل دهشتها. إن رجلا متميزا مثل "نوما" لا يجب أن يحب فتاة ريفية بسيطة.

ونمت في ذهنها فكرة أراحتها وهي أنه بفضل تدخل العرافة الغجرية ستستطيع أن تستعيد "نوما"!

انتشرت أشعة الشمس الذهبية على المدينة. شعرت بأنها مفعمة بالأمل في المستقبل، كانت تمشي في سعادة. إن "نوما" سيعود إليها. لقد أخطأت عندما قامت بهذه الرحلة البحرية. ربما اعتقد أنها لا تحبه بالقدر الكافي حتى تذهب في رحلة طويلة كهذه.

كان لابد أن يعتقد أن هناك العديد من الرجال الذين يترددون إليها. وهذا ما لم يكن خطأ.

لم تكف كلمات العرافة عن التردد على أذنيها: "يمكننا مساعدتك" كانت تريد أن تجري الساعات بسرعة لتقابل المرأة. كانت متأكدة أن بواسطة المال ستوافق العرافة على مساعدتها. يجب أن تنجح وستنجح.

في انتظار ذلك قررت أن تزور المدينة. ذهبت حتى برج الساعة القديم ووصلت إلى ميدان "فرنسا". على الرغم من أن الوقت كان مبكرا، فقد

كان المرور مزدحما. كانت "ناتالي" ترتدي صندلا خفيفا مما ساعدها على السير.

بالتأكيد كان العديد من المغاربة يقومون بأعمالهم، كما كان هناك عدد كبير من السائحين يزورون هذه المدينة الجميلة التي بنيت مكان مدينة قديمة تدعى "آنفا"، العديد من الأطفال يمرقون بين المارة باسطي أيديهم يطلبون المال من الأجانب. نزل من أوتوبيس مجموعة من الألمان والإنجليز يقودهم مرشد لزيارة المدينة. انضمت "ناتالي" إلى هؤلاء الزائرين راغبة في أن تزيد معرفتها بالمدينة.

عرفت أنه لا يوجد أي مؤرخ يستطيع أن يحدد أصل المدينة القديمة. هل البربر، أو القرطاج، أو الرومان هم الذين أسسوها؟ الشيء المؤكد هو أن السلطان "أبو يوسف" قد اتخذها مقرا له في القرن الثاني عشر. ثم استولى عليها البرتغاليون ودمروها سنة ١٤١٨. ولكن بعد قرن واحد استعادها المغاربة وأطلقوا عليها "كازابلانكا".

لكن سنة ١٧٥٥ دمر زلزال قوي جزءا كبيرا من الأبنية وبعد سنتين أعاد إعمارها سيدي "محمد بن عبدالله" وبنى فيها مسجدا رائعا ومدرسة وحماما.

انجذبت "ناتالي" تماما لحديث المرشد الذي كان يتحدث بثلاث لغات: الإنجليزية والفرنسية والألمانية وكان يقرن شرحه بحركات مسرحية كان رجلا قصيرا مفعما بالحيوية. تبادلت "ناتالي" الحديث مع سائحة هولندية نصحتها بزيارة سوق الأقمشة. قائلة:

- وجدت إحدى صديقاتي في هذه السوق أقمشة رائعة، هل تريدين الذهاب معي؟

تركت السيدتان المجموعة السياحية واستقلتا تاكسي إلى سوق الأقمشة (سوق سيدي جديد) أشار إليهما سائق التاكسي بابتسامة عريضة إشارة إلى أنهما قد وصلتا. قال:

- اليوم الجمعة... ستريان الرواة وسحرة الثعابين... إنه عرض جميل.

سلكتا طريقهما وسط حشد يتسارع لرؤية السحرة. وقد أثار

انتباههما بعض الصرخات. إنه مراهق نحيف وأسود يدق على الطبلة بينما يخرج رجل عجوز من سلة ثعبان كوبرا ضخما يحرك رأسه على نغمات الموسيقى.

كانت "ناتالي" تشعر بالاشمئزاز تجاه الزواحف فتراجعت إلى الخلف. بينما اقتربت الهولندية البدينة في فضول من الرجل.

سألته:

– هل هو حي؟

ولكنه من الواضح أنه لم يفهم لغتها فقد أخذ يتكلم بعض العبارات بالعربية بينما فتح الثعبان فاه محذرا.

بعد هذا العرض الذي لم يعجب "ناتالي" افترقت السيدتان. ودعت السيدة الهولندية "ناتالي" وتمنت لها إقامة سعيدة في "المغرب".

قررت "ناتالي" أن تعود إلى فندق "منصور". المدينة هي أكثر الأماكن جمالا في "كازابلانكا". هناك جو منعش في شوارعها حيث لا يتسرب إليها أي شعاع من الشمس بسبب القرب الشديد بين منازلها.

تصطف متاجر الجزارين مع متاجر الألعاب ومتاجر بائعي السجاد، بينما يتجول بائعو الكسكسي والبلح والأخطبوط المقلي ببضاعتهم.

عندما تركت العرافة الفندق بالأمس توجهت إلى كوخها.

إن العجوز التي كانت تمشي بصعوبة البارحة لتستدر العطف تمشي الآن بخفة، إنها لا تفكر في العملة الورقية الكبيرة التي دستها في ملابسها الرثة. إذا أرادت لبنيت لنفسها فيلا بين تلك الڤيلات البيضاء ببعض من القطع الذهبية التي لديها. ولكن كانت العجوز تحب الذهب للذهب. في المساء في ظل مصابيح الزيت تسيل القطع الذهبية بين أصابعها، لكي تحصل على هذا المعدن القيم كانت تقوم بالعديد من المهن التي لا يمكن تسميتها بسهولة.

كم من المرات بعد غروب الشمس يتسلل إليها بعض الأشخاص ويقفون عند بابها الذي ليس سوى ساتر من الجلد.

هؤلاء الزائرون كانوا يمكثون حتى ساعة متأخرة من الليل ويرحلون ومعهم إكسير عجيب له تأثير خطير في حياة هؤلاء الذين يسببون لهم

متاعب في الحياة.

عند عودتها إلى بيتها تناولت العجوز قطعة صغيرة من اللحم. كانت ذاهبة في ذلك الوقت لتحصل على الماء عندما فاجأتها "ناتالي" التي كانت لاتزال فزعة من مشهد الثعبان وتعبر الشارع الصغير بسرعة.

بدون تردد تابعتها العجوز ونادتها:

– آنستي... آنستي.

دهشة التفتت تلك الأخيرة وتعرفت على الغجرية، التي قالت:

– يا له من حظ أن أقابلك هنا، نستطيع أن نتحدث أفضل في الفندق، كان ذلك هو رأي "ناتالي" أيضا.

– هل تسكنين هنا؟

– تعالي.

بعد تردد قصير. دخلت "ناتالي" تابعة العجوز لكنها تراجعت أمام الرائحة السائدة في المكان، لكنها كانت مقتنعة بأن هذه السيدة تستطيع أن تساعدها وتحل مشكلتها.

قالت العجوز:

– أنت تغارين من امرأة. لا تقولي عكس ذلك فلن أصدقك.

– هذا صحيح.

أخذت وعاء من النحاس به سائل أسود وسكبت بعض النقط على جريدة قديمة كانت على طاولة قصيرة.

– هذه قهوة... قهوتي.

توقفت قبل أن تستطرد:

– هذه السيدة شابة وشقراء.

سألتها "ناتالي":

– هل هي جميلة؟

– جميلة جدا.

– هل زوجها.

– لقد أخبرتك بالأمس بأنه لا يحبها. إنه لا يفكر إلا فيك.

– لماذا تزوجها إذن؟

– أجبتك بانها سحرته. لكني أستطيع أن أكسر هذا السحر.

تمتمت "ناتالي":

– كيف؟

– سأعطيك زجاجة تحتوي على خلاصة أعشاب لها قدرة سحرية. اسكبي بعض النقط في القهوة التي ستقدمينها لغريمتك. على الفور ستبعد عن زوجها... وستهرب ولن تحبه.

همست "ناتالي":

– لا أريد أن أقتلها.

– ستفعلين كما يحلو لك. بعض النقط ستجعلها سيئة وإذا أكثرت ستختفي نهائيا. ستتصرفين كما تريدين.

فتحت العجوز صندوقا مملوءا باقمشة قديمة والتقطت من تحتها زجاجة صغيرة. بيد مرتعشة أرادت "ناتالي" أن تمسكها ولكن ضحكت الغجرية في مكر.

– يا حلوتي... لا تستطيعين أن تاخذيها هكذا.

سألت ابنة البروفيسور:

– لا أفهم.

– ألفا دولار في شكل قطع ذهبية.

فزعت "ناتالي":

– لكن ليس معي مثل هذا المبلغ.

– اسمعي لم ينقض النهار بعد. البنوك مفتوحة. لديك الوقت لتحصلي على المال. لكن انتبهي أريد قطعا ذهبية فئة العشرين دولارا. سأمر عليك آخر النهار في الفندق. وستسلمينها لي في كيس صغير. إذا أحضرت ما طلبت ستحصلين على الزجاجة وليس قبل ذلك. هل فهمت؟

قامت "ناتالي" بحسبة صغيرة: هذه السيدة تطلب عشرة آلاف فرنك فرنسي. هذا كثير. ولكن لاستعادة حب "نوما" كانت مستعدة أن تدفع عشرة أضعاف هذا المبلغ. قالت:

– اتفقنا، سأكون في الفندق الساعة الخامسة.

تركت كوخ العرافة بينما ارتسمت ابتسامة رضا على شفتي تلك الأخيرة. لقد كسبت كثيرا في هذا النهار...

كانت "ناتالي" قبل موعدها مع الغجرية بثلث ساعة. جلست إلى طاولة بعيدة عن الزبائن. أخذت تنظر من آن لآخر إلى ساعتها. أخيرا رأت العجوز منحنية متظاهرة بالضعف لاستدرار الشفقة.

بعد أن توقفت عند عدة طاولات. جاءت أخيرا إلى "ناتالي" تظاهرت بانها تقرأ خطوط يدها بينما وضعت ابنة البروفيسور الكيس على حافة الطاولة. التقطته العجوز مبتسمة ودسته في ملابسها وفي المقابل أخرجت زجاجة صغيرة ووضعتها على ركبتي الفرنسية وقالت هامسة:

– "بضع نقط في قليل من القهوة... وستجدين سعادتك".

أومأت "ناتالي" برأسها بانها قد فهمت، في نفس المساء اتصلت "ناتالي" بوالدها الذي وصل توا إلى "مكناس".

– أبي لقد أصبت بالملل في "باريس"... وأنا الآن في "كازابلانكا". سألحق بك صباح غد.

دهشا وفي نفس الوقت غاضبا من هذا القرار غير المتوقع، وجه إليها بعض اللوم، ولكن بما أنه كان يدللها فقد ذهب ليستقبلها بنفسه في اليوم التالي في المطار وهي تنزل من الطائرة الصغيرة التي تربط بين المدينتين.

الفصل الثاني عشر

في هذا الصباح تسلل شعاع شمس حتى سرير "صوفي" فايقظها. فتحت عينيها فوجدت سرير "نوما" خاويا. اعتقدت على الفور أنها استيقظت متأخرة عن الأيام الأخرى ولكن عندما نظرت إلى ساعة الحائط وجدت أنها توشك أن تعلن السابعة.

نهضت وتوجهت إلى الحمام. نادت "عائشة" التي جاءت مسرعة وقالت "صوفي":

– لقد خرج السيد هل تم استدعاؤه إلى المستشفى.

– لا يا سيدتي، لقد أعد الحصان للقيام بنزهة.

فزعت "صوفي":

– ماذا تقولين؟

– إنه "علي" القائم على الإصطبل، هو الذي أعد الحصان "ميرادور".

أصابت الدهشة "صوفي". زوجها لا يمتطي الحصان أبدا دون أن يخبرها، كما أنه لا يخرج إلا أيام الخميس أو الأحد حيث لا يكون لديه كشف. واليوم هو الثلاثاء.

شعرت بعدم الارتياح. كل هذا يبدو غير طبيعي وترجعه إلى "ناتالي". ألم يخرج معها؟ كانت تستطيع أن تسأل "عائشة" لكن هذا الفضول قد يدهش الفتاة. تظاهرت بعدم الاكتراث وقالت:

– أعدي لي قدحا من الشاي المثلج. الجو حار وأشعر بالظمأ.

أجابت:

– نعم يا سيدتي.

قضت "صوفي" يومها في حيرة تنتظر عودة "نوما". لكن رن جرس التليفون قبل الظهر وأخبرها صوت لا تعرفه بأن الدكتور "ارموري" في المستشفى ولن يستطيع الحضور على الغداء. بقيت دون أن تتحدث وهي تضع السماعة. بدون شك أن "نوما" مع البروفيسور "أندريو" وابنته. حبست "صوفي" دموعها.

لم تستطع أن تسترخي ساعة القيلولة، كانت تشعر بعصبية شديدة،

إن الغيرة تعذبها. أرادت أن تذهب إلى المستشفى تحت أي حجة وتطلب زوجها لكنها خشيت أن تغضبه، ألم يخبرها بأن أستاذه هنا؟

زيارتها قد تكون سوء تصرف منها. بقيت إذن في البيت محاولة أن تقرأ أو تشاهد التليفزيون لكنها لم تستطع أن تركز في شيء. نحو حوالي الخامسة سمعت صوت "نوما" يتحدث إلى "علي". ثم ظهر بعد دقائق، إنه مازال بملابس الفروسية. إنه جميل جدا في تلك الملابس. إنه يرتدي قميصا أبيض وقد شمر الكمين ليكشف عن ذراعين سمراوين بفعل الشمس. عندما رأى نظرة زوجته المتسائلة، شرح لها:

– اليوم لم أذهب إلى المستشفى ولكني رافقت البروفيسور "أندريو" الذي أراد أن يزور أنحاء المدينة.

رفعت رأسها وثبتت عينيها في عينيه وقالت بصوت مرتعش:

– هل كانت ابنته معكما؟

فزع لتخمين "صوفي" الصحيح. قال مضطربا بوضوح:

– حفاظا على مشاعرك... لم أرغب أن أخبرك بوجودها. لقد سئمت في "باريس" وأنت على غير توقع لتلحق بوالدها. لكن كيف عرفت؟

– رأيت ثلاثتكم البارحة بالسيارة.

جاهدت حتى تخفي عنه ألمها وتمنع دموعها. اقترب من "صوفي" وجذبها نحوه برفق.

– ربما أخطأت عندما لم أخبرك بأنها هنا. قد تفكرين في أشياء ليست صحيحة... أخبريني. أنت لست غيورا؟ هيا يا عزيزتي كوني مطمئنة منذ أن عرفتك وأنت الوحيدة في حياتي.

كان صوته حانيا انفتح له قلب "صوفي" وتلاشت كل مخاوفها. سعادتها التي اعتقدت أنها مهددة بدت لها أكبر مما كانت عليه في هذه اللحظة.

لم يخرج "نوما" في هذا المساء.. من الواضح أنه أراد أن يعتذر لزوجته عن تركه لها البارحة. أخبرها بأن البروفيسور وابنته قد ذهبا إلى "كازابلانكا".

لم تستمر حالة الذعر سوى برهة قصيرة وفي الأيام التي تلت ذلك تلاشت صورة "ناتالي" شيئا فشيئا من ذهن "صوفي". كما أنها قد وصلها خطاب مفعم بالحب من والدها.

أول خطاب منذ زواجها. أخيرا من الواضح أنه أذعن بأنه كان مخطئا عندما تنبأ لابنته بمستقبل بدون سعادة...

كانت وسيلة التسلية الوحيدة للدكتور "أرموري" في "مكناس" هي الفروسية. هذه المدينة وهي واحدة من أكبر أربع مدن في "المغرب" تقع على هضبة تحفها من الجنوب جبال "أطلس".

منزل "أندريو" الذي لم يكن بعيدا عن حديقة السلطان ليس بعيدا أيضا عن الجبل، كما أنه مكان مثالي لنزهة بالحصان. أحيانا كان "نوما" يخرج من المستشفى ويضع السرج على الحصان العربي الجميل الذي اشتراه من المربي العربي ويقوم ببعض النزهات حول المدينة. كان يحب الذهاب إلى الأراضي ذات الرمال التي تكون أكثر رطوبة عند غروب الشمس.

قال ذات يوم لـ"صوفي":

– عزيزتي، يجب أن ترافقيني. ساعطيك دروسا وساشتري لك مهرة جميلة.

قبلت "صوفي" وهي التي كانت تشعر ببعض الحزن لان زوجها يخرج بمفرده. بدأت دروس الفروسية مع معلم من سكان البلد. كان لدى "صوفي" استعداد جيد للتعلم. وبعد أسبوعين استطاعت أن تتبع "نوما" في جولاته. كما كانت قد انتظمت في عملها كممرضة في مستوصف الأطفال ثلاثة أيام في الأسبوع؛ مما زاد من ارتباطها بـ"نوما" عما كان في بداية مجيئهما إلى "مكناس". شعرت بنوع جديد من الاستقرار.

مرت عشرة أيام منذ زيارة البروفيسور "أندريو". ذات أربعاء كانت "صوفي" بجوار زوجها في المستوصف عندما اقترب منه أحد الأطباء الصغار وهمس له:

– البروفيسور "أندريو" يتصل بك من "باريس".

استدار في دهشة وترك القاعة. عندما عاد بعد عدة دقائق لاحظت "صوفي" عبوسه فلم تستطع أن تمنع نفسها من أن تسأله:

– هل هناك شيء؟

أجاب باختصار:

– بعد قليل ساشرح لك.

استدار نحو الطبيب الشاب وقال له:

– استكمل الكشف على الأطفال. هذا المساء مضطر للتغيب.

ثم أشار إلى زوجته أن تتبعه. عندما أغلق باب مكتبه قال لها وهو يخلع قميصه الأبيض:

– عزيزتي: لقد حدث شيء مزعج، تصوري بدلا من أن تعود مع والدها إلى "فرنسا". بقيت "ناتالي" هنا مع أحد الأصدقاء في مزرعة بالقرب من "فاس" وهي تعاني الزائدة. ولقد اتصلوا بـ"باريس" بوالدها البروفيسور "أندريو" الذي اتصل بي بدوره حتى أذهب على الفور بالقرب من ابنته. إنه يثق بي ويأمل أن أجري لها العملية إذا لزم الأمر. لا أستطيع أن أرفض.

قالت بتلقائية على الرغم من عدم ارتياحها لوجود "ناتالي":

– لا مجال لذلك.

بسرعة ارتدى "نوما" سترته وأخذ بعض الأدوات.

– أعتقد أن هذه المزرعة على بعد حوالي أربعين كيلو مترا من هنا. لا تنتظريني على العشاء. على أية حال ساتصل بك.

قبل زوجته وخرج بسرعة.

عندما عادت "صوفي" إلى البيت كانت مثقلة بالتفكير في "ناتالي". سألت نفسها إذا كان "نوما" يعرف أن خطيبته السابقة قد بقيت في "المغرب"، على أية حال لم ينكر شيئا، إنه لم يرها وهذه الفكرة أراحتها.

طافت في هذا اليوم في أنحاء الڤيلا في قلق بعد العشاء، بقيت في المكتب لكي تكون بالقرب من التليفون وكذلك محاولة تركيز أفكارها بين هذه الجدران التي تحتفظ بوجود حبيبها. جلست أمام المكتب

وبتلقائية قلبت أصابعها في صفحات المفكرة حيث يكتب زوجها مواعيده.

ألقت نظرة عابرة على العناوين المكتوبة فزعت عندما قرأت: "مزرعة فرنيس- ملاوي سفرو". بالقرب من هذه الأسطر قرأت حرف "ن" وحوله دائرة. "ناتالي"! إنه أول حرف من اسمها. إذن ليس هناك شك! كان "نوما" يعرف أن الفتاة قد بقيت في "المغرب" بما أنه كتب عنوانها. كان هذا الاكتشاف له عليها وقع اكتشاف الخيانة. وفي نفس اللحظة رن التليفون.

إنها ممرضة من المستشفى تخبر السيدة "أرموري" بأن الدكتور لن يعود قبل منتصف الليل. وضعت السماعة ونظرت إلى ساعة الحائط فوجدتها التاسعة.

بدون شك سيجري "نوما" الجراحة لـ"ناتالي" أمسكت بالفستان الصغير الذي تحيكه من أجل إحدى الفتيات الصغيرات اليتيمات في الدير. ثم أغلقت صندوق الحياكة.

نهضت وخرجت إلى صحن الفيلا. كان الجو ثقيلا وشعرت بدوار، بالإضافة إلى شعورها بالغثيان عندما وصلت إليها رائحة المطبخ. قالت محدثة نفسها: "لقد أصبحت مفرطة الحساسية. يجب أن أسيطر على أعصابي، لا يجب أن أغتم لأنه يعالج خطيبته السابقة. ألم يأت بنفس التفاني ليعالج أبي"؟!

بما أنها كانت تشعر بالتعب قررت أن تذهب لتنام. كان الجو حارا. تركت "صوفي" النافذة مفتوحة مما جذب الفراشات إلى ضوء الغرفة. دخلت إذن تحت الناموسية وأطفأت الضوء. غمر ضوء القمر الغرفة وبدت السماء من إطار النافذة صافية تماما. كانت المروحة تلطف الجو ولكنها أطفأتها لتتجنب الأزيز المزعج الذي تحدثه ويمنعها من سماع صوت محرك سيارة "نوما"، كم من الوقت ستبقى مفتوحة العينين في الظلام؟

استيقظت فزعة. أضاءت النور. إن "نوما" لم يعد والساعة الثانية بعد منتصف الليل. تملكها القلق. الآن لم تستطع أن تعود للنوم.

سألت نفسها إذا كان زوجها قد عاد إلى "مكناس" مع مريضته كما كانت تتوقع. أرادت أن تتصل بالمستشفى لكن الوقت متأخر ولم ترد أن تزعج الممرضة. أخيرا، سمعت صوت محرك سيارة بعيدا مما جعلها تأمل في عودة زوجها. ثم تأكدت من ذلك.

سمعت السيارة تتوقف أمام الباب. أزاحت "صوفي" الناموسية بسرعة ووضعت شالا على كتفيها. كانت عند عتبة الباب عندما ظهر "نوما" عند مدخل صحن البيت. بدا مرتبكا عندما رآها.

- لماذا نهضت؟

- لقد كنت أنتظرك.. أنت تعود متأخرا جدا... أو مبكرا جدا.

- الطبيب ليس له مواعيد.

وضع عدته بعصبية على المقعد. سألته "صوفي" بتردد:

- هل أنت عائد من هناك؟

- لا.

قالت في دهشة:

- كيف لا؟

أجاب بجفاف:

- لقد نقلتها إلى هنا. وهي الآن تحت الملاحظة، حالتها لا تستدعي الجراحة، إن الأمر أبسط مما كنت أتصور.

كان في نبرة "نوما" عصبية لم تعتدها. وبعد قليل وجدت تفسيرا لذلك. قال:

- لقد بالغ كثيرا أصدقاء "ناتالي" الذين تسكن عندهم. لم يكن الطبيب الذي رآها منزعجا على الإطلاق. لقد أخطأوا بالاتصال بوالدها!

لم تجب "صوفي" بشيء لكنها سألت نفسها لماذا- مادامت حالة "ناتالي" ليست خطرة- قادها "نوما" إلى "مكناس"؟ خاطرت بالسؤال:

- بما أن مرضها ليس خطيرا كما كنت تعتقد، فلماذا بقيت في المستشفى حتى هذا الوقت المتأخر؟

- "ناتالي" عصبية جدا.

– حقا؟

ابتسم ابتسامة صغيرة:

– لقد كانت تعتقد أنها ماتت بالفعل. شعرت بالتوتر، عندما دخلت المستشفى. كانت مقتنعة بانني ساجري لها عملية، وأن ساعتها الأخيرة قد جاءت اضطررت إلى أن أجلس إلى جوارها لأهدئها وأقنعها بأن ليس هناك خطر.

أضاف:

– لكن يكفي الكلام عنها. أنت هنا حافية القدمين على البلاط البارد بما أننا في الليل.

قال وهو يجذبها للداخل:

– تعالي لتنامي.

الفصل الثالث عشر

في صباح اليوم التالي ذهبت "صوفي" إلى المستشفى. كان يوم الكشف على الأطفال الرضع. وهي تعبر الممر الأبيض الكبير وقعت عيناها تلقائيا على النافذة المركزية للجناح المخصص للعيادة. كانت هذه هي أكثر الغرف راحة، ولم تشك "صوفي" في أن "نوما" قد أعطاها لـ"ناتالي". ربما يكون بجانبها الآن، جلست تنتظر زوجها في المكتب.

جاء كالمعتاد، يبدو أنه لم يسرف في البقاء مع "ناتالي". سألته "صوفي":

– كيف حالها؟

– إنها تستريح. سأفحصها في نهاية اليوم.

ثم أضاف:

– لقد أبلغوني بحالة جدري في الجنوب. سنطعم الأطفال الذين سيأتون للاستشارة.

خلال ساعتين، ساعدت "صوفي" زوجها على عمله، لأول مرة شعرت بالتعب أنهكتها الحرارة. أزعجتها رائحة الأدوية بشدة مما اضطرها للخروج إلى الحديقة حتى تتنفس الهواء الطلق.

سألت نفسها معترفة بأنها لا تستطيع تحمل المناخ الإفريقي:

– هل سأسقط مريضة؟

لكن بدد تعبها النسيم اللطيف. واستطاعت أن تستكمل عملها حتى وقت الغداء. لم تجرؤ "صوفي" على السؤال عن أحوال "ناتالي" حتى لا تبدو لـ"نوما" فضولية أو متطفلة.

انتظرت حتى يحدثها هو بنفسه عن مريضته. في المساء قال لها:

– اتصلت بالدكتور "أندريو" لأطمئنه. إذا مرت الأمور طبيعية أتمنى أن تترك ابنته المستشفى في نهاية الأسبوع. لقد حجزت لها على أية حال على الخطوط المغربية التي ستغادر "كازابلانكا" مساء الجمعة، بعد خمسة أيام لن تكون هنا. مما أسعد "صوفي".

في اليوم التالي أدركت "صوفي" في ارتياح أن "ناتالي" ستغادر

www.rewity.com

"مكناس". حتى لو كان "نوما" دقيقا ويعود إلى المدينة في موعده إلا أن "صوفي" لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير في أن خلال اليوم تمت زيارته لخطيبته السابقة.

بعد يومين، عندما عاد "نوما" من المستشفى، قال لزوجته بنبرة بدا فيها الضيق:

– يجب أن تغادر "ناتالي" المستشفى. إننا نحتاج الغرفة التي تشغلها من أجل مريض آخر.

سألت في دهشة:

– ألم تقل إنك حجزت لها لتغادر يوم الجمعة؟

– نعم، ولكنها مازالت متعبة حتى تقوم بهذه الرحلة بمفردها.

– ماذا ستفعل؟

– سيأتي والدها ليأخذها والفندق غير مريح حتى تنتظر مجيئه.

توقف ثم استطرد:

فكرت في أنه ربما لن ترفضي أن نستقبلها في غرفة الضيوف.. نحن هنا في الغربة ويجب أن نتعاون.

بقيت "صوفي" صامتة. هذا الاقتراح كان آخر شيء تتوقعه. إنها لا تستطيع أن ترفض، كما أن "نوما" يعرف صعوبة هذا الموقف بالنسبة لها. قالت:

– هل تعتقد أن الآنسة "أندريو" ستقبل المكان الذي سنوفره لها؟

كانت تنظر إليه– وهي تقول هذه الجملة– ولاحظت ارتعاش شفتيه. قال:

– إذا كانت "ناتالي" في وقت ما خطيبتي فهي قد نسيت ذلك.. أؤكد لك أنها لا تفكر لحظة واحدة في الماضي. ولكي أثبت لك ذلك: إنها هي نفسها التي قالت لي بأنها ستكون سعيدة بالتعرف إليك. إذن ألا تجدين مانعا في أن تأتي هذا المساء؟

بماذا تستطيع أن تجيب؟ بقلب مثقل قالت إنها ستعطي الأوامر بتجهيز الغرفة.

قضت "صوفي" فترة بعد الظهر تساعد "عائشة" على ترتيب الغرفة.

وكان كل شيء جاهزا لاستقبال "ناتالي".

هل هذا التعب الذي تشعر به بسبب المجهود الذي بذلته، أم بسبب الضغط النفسي الذي تعانيه بسبب قدوم "ناتالي"؟ شعرت بأن الحوائط تدور حولها ولولا ذراعا "عائشة" لسقطت على الأرض. عندما فتحت عينيها كانت ممددة على السرير ورائحة الخل تعبئ الغرفة وكانت "عائشة" إلى جوارها.

– هل أنت أفضل يا سيدتي؟ هل يجب أن أتصل بسيدي؟

– لا. لا تقلقيه. اليوم سنستقبل زائرة.

نهضت "صوفي" من السرير ولكن انتابها غثيان فانكفأت على الوعاء الذي كانت عائشة قد أحضرته. عندئذ بدا لها سبب ما تشعر به منذ ثمانية أيام من دوار وغثيان جليا كالشمس. لماذا لم تفكر قبل ذلك في هذا السبب الذي ملأ قلبها بالفرحة، إنها حامل. إن كل شيء يؤكد ذلك الحمل.

لقد أرجعت كل هذه التغيرات إلى الطقس وتغير حياتها. ولكن كيف لم يلاحظ "نوما" وهو طبيب كل ذلك. إن الزوج المحب يلاحظ أي تغيرات تحدث في جسد من يحبها..

لكن هل يحبها "نوما" بالقدر الكافي حتى يلاحظها؟ عندما أحبها أول مرة لم يفكر إلا في رغبته دون الاهتمام بشيء آخر؟ إن لحظاتهما الخاصة قليلة بالفعل؛ حيث يقضي الكثير من الوقت في العمل. على الرغم من كل علامات الاستفهام التي كانت تدق في ذهن "صوفي" فإن سعادة غامرة ملأت قلبها. الآن تشعر بأنها قوية بالدرجة الكافية حتى تدافع عن زوجها ضد خطيبته السابقة. إنها لم تعد بمفردها لتخوض هذه المعركة.

كانت الساعة السادسة والنصف عندما سمعت "صوفي" صوت أقدام تعلن قدوم "ناتالي". تقدمت "صوفي" إلى صحن الفيلا لتستقبل ضيفتها. كانت "ناتالي" هي من دخلت أولا وتبعها "نوما". إنها فتاة مشرقة مفعمة بالشباب، شعرها الأسود ينسدل في تموج على كتفيها. لماذا تخيلتها "صوفي" في أفكارها فتاة قبيحة؟ أحيانا كثيرة يخطئ

المرء. إن "ناتالي" جميلة حقا. توقفت عند أحد الأعمدة والتفتت إلى الدكتور "أرموري" منتظرة أن يقدمهما.

كانت "صوفي" رغما عنها مضطربة قليلا. تمتمت ببعض عبارات الترحيب. بينما قالت "ناتالي" - في كلمات محسوبة ومختارة- إنها آسفة إذا كانت قد تسببت في إزعاجها. تتقدمها "عائشة" ذهبت مباشرة إلى غرفتها.

سألت "صوفي" زوجها الذي بقي في الخلف:

- سنقدم لها طعاما خفيفا في السرير بدون شك.

- لست أدري، يمكنك أن تساليها. لكنها بحالة جيدة حتى إنها تستطيع تناول العشاء معنا.

كانت نبرته قاسية على غير العادة. لم تعرف "صوفي" إذا كان وجود "ناتالي" تحت سقف بيتهما هو السبب.

أرادت أن تتبادل الحديث مع زوجها بأن تبوح له بالسر الذي يسكنها، لكنه صرح لها بأنه لن يعود إلا عند العشاء.

توجهت "صوفي" إلى غرفة "ناتالي" حتى تتأكد من أنها لا ينقصها شيء. لكنها قابلت "عائشة" التي قالت لها:

- الآنسة تستريح. قالت لي أن أوقظها الساعة السابعة.

كانت "صوفي" جالسة أمام التليفزيون تسمع آخر الأخبار، لكنها لم تكن تسمع بتركيز صوت المذيع. إن هذا الطفل الذي سيولد بعد شهور قد أخذ كل تركيزها. إنها لا تفكر حتى في غيرتها من "ناتالي"، إنها تتخيل سعادة "نوما" هذا المساء عندما تعلن له هذا الخبر.

أغمضت عينيها وتخيلت يدين صغيرتين تحيطان برقبتها. فكرت: "إذا كانت بنتا سأطلق عليها "ماري سيسيل" لذكرى أمي الحبيبة وإذا كان ولدا سأطلق عليه "نوما". أفاقت من حلمها على صوت زوجها. لم تسمعه وهو يدخل. قال لـ"علي":

- قل لـ"عائشة" أن تخبر الآنسة "أندريو"...

ظهرت هذه الأخيرة على الفور وقد استبدلت بالجيب متعددة الألوان التي كانت ترتديها في الصباح فستانا أصفر شاحبا.

لاحظت "صوفي" أنه ليس على وجهها أي نوع من مساحيق التجميل الذي ينم عن الهدوء والثقة بالنفس. في الواقع إن جمالها لا ينكر وابتسامتها مفعمة بالجاذبية، تكشف عن أسنان ناصعة البياض مما يزيدها سحرا.

شكرت "ناتالي" مضيفيها مرة أخرى. لقد أعجبت بغرفتها ذات الألوان الفاتحة. قالت مشيرة إلى أثاث حجرة المعيشة:

- كل شيء جميل ومضياف هنا.

وأضافت موجهة حديثها لـ"صوفي":

- حقا إن ذوقك رفيع.

من الواضح أنها تريد استمالة "صوفي". اتجهوا إلى غرفة السفرة. على المفرش الأبيض أضيئت شمعتان من الكريستال.

قالت الآنسة "أندريو" وهي تجلس بين الزوجين اللذين جلسا كلاهما في مواجهة الآخر:

- كم هذا جميل.

من خلال النافذة المفتوحة سدل الليل ستائره.

قال "نوما":

- يجب سدل الستائر وإلا غزت الفراشات المكان.

هذه هي المرة الثانية التي يعطي فيها "نوما" الأوامر. ولم يكن ذلك من طبعه.

على الرغم من ذلك لم تستشف "صوفي" شيئا على وجهه. ولا صوته يكشف عن أي ارتباك وكذلك نفس الشيء بالنسبة لابنة البروفيسور. سألت "صوفي" نفسها إذا كان الخطيبان كانا بالفعل متحابين. سلوكهما يشير إلى أن هذه الزيجة كانت بدافع من البروفيسور.

دار الحديث عن إفريقيا التي تزورها "ناتالي" للمرة الأولى.

- لو لا أزمة الزائدة هذه لما فكرت في العودة إلى "فرنسا" كنت سأزور "الجزائر" ثم "مصر".

كانت تتمتع بسحر كبير وجسدتها "صوفي" على جمالها. إن

ثقافتها تجعلها تستطيع الحديث عن الفن والأدب، إنها فتاة عصرية مثالية.

انتهى العشاء واستأذنت "ناتالي" للانسحاب. قالت مبتسمة في مكر إلى "نوما":

– يجب أن أتبع إرشادات الطبيب وأنام مبكرا.

قادتها "صوفي" حتى غرفتها لترى بنفسها إذا كان ينقصها شيء. في لحظة ذهابها، صافحتها "ناتالي" ناظرة إليها بعينيها السوداوين وقائلة:

– أنا سعيدة جدا بمعرفتك، تعرفين أن "نوما" ووالدي كانا متفقين على زواجي من "نوما" ولكنك أفضل مني زوجة له. أحب "نوما" كأخ وسعادته تسعدني. لم تنتظر إجابة "صوفي" وأغلقت الباب خلفها.

الفصل الرابع عشر

مثل كل مساء، كان "نوما" يدخن الغليون أمام مكتبه عندما دخلت زوجته. كان قلبها يدق أسرع من المعتاد لفكرة السر الصغير الذي ستعلنه له. اقتربت منه وطبعت قبلة رقيقة على جبهته، وبدأت بشيء من الارتباك.

– عزيزي، هل تفكر في...

رفع رأسه كأنه لم يسمع جملتها:

– تصوري أن البروفيسور "أندريو" عندما اتصل بي هذا الصباح ليشكرني لعنايتي بابنته أخبرني بأنه سيسهل لي أشياء كثيرة عندما أنتهي من عملي هنا.

– ماذا تقصد؟

شعرت "صوفي" بغصة في حلقها. دون أن يلاحظ قلقها، استطرد:

– ربما بمساعدته أستطيع أن أذهب بضعة أشهر إلى مركز الأبحاث الطبية في "أمريكا". أي طبيب يحرص على معرفة آخر الاكتشافات. سأكتب له فورا بهذا الشأن.

كانت الفرحة تضيء وجهه، وفكرت "صوفي" في أنها ليست اللحظة المناسبة لتكشف له عن آمالها. ولما كانت تشعر بالتعب، ذهبت لتستريح.

كان "نوما" في المستشفى عندما استيقظت "صوفي" في اليوم التالي. أخذت حماما سريعا، وارتدت ملابسها، وسألت عن "ناتالي". أخبرتها "عائشة" بأنها مازالت نائمة.

نحو الحادية عشرة رن الجرس الذي بحجرة "ناتالي" ولم تظهر الآنسة "أندريو" إلا الساعة الثانية عشرة ظهرا. كانت ترتدي فستانا أحمر، وقرطين ذهبيين كبيرين، وجمعت شعرها في شنيون مما جعلها تشبه الإسبانيات مغيرا شكلها تماما.

نظرت إلى "صوفي" مبتسمة:

– منذ شهور لم أنم جيدا على هذا النحو جو "المغرب" يناسبني تماما.

أجابتها "صوفي" التي استنتجت بدهشة كم لا يبدو عليها أي مرض!

– في الحقيقة تبدين على ما يرام.

تبادلت الاثنتان الحديث، كانت "صوفي" منبهرة بالسحر المنبعث من الفتاة الشابة. وفي لحظة ما قالت "ناتالي":

– يبدو أنك مساعدة ممتازة لـ"نوما"، هل درست التمريض؟

– لا، ليس تماما... لكن في البلد الصغير الذي نشأت فيه كنت أساعد والدي على العناية بالمرضى.

– أوه! السيد والدك طبيب؟

ألقت هذا السؤال بنبرة تحد وبسخرية قاسية. ساد الصمت وتحت نظراتها الملحة شعرت "صوفي" بأن الدماء تصعد إلى وجهها. هل ستنكر والدها أمام ابنة البروفيسور المشهور؟ شعرت بالخجل لمجرد هذه الفكرة.

قالت بصوت واضح:

– أبي معالج... إذا كان لا ينتمي لمهنة الطب الحديث فإن عنايته بالمرضى كانت خير عون لهم.

كانت "ناتالي" تدخن سيجارة، أسقطت الرماد على الأرض وقالت في وقاحة:

– سمعت الحديث عن ذلك. لكني وجدت صعوبة في أن أصدق أن "نوما" اختار أن يكون حموه معالجا... الآن فهمت لماذا يمارس الطب بعيدا عن "فرنسا".

كانت كلماتها مفعمة بالسخرية، تحملتها "صوفي" بصعوبة بينما شحب لونها. بماذا تستطيع أن تجيب؟ كيف تقابل هذا الشر؟ بقيت صامتة.

في هذه اللحظة ظهر "نوما". لاحظ على الفور عبوس زوجته. فسألها:

– ماذا بك؟

بصعوبة بالغة استطاعت أن تجيبه:

– لا شيء.. ربما الحرارة.

أمسك يدها في حنان:

– هل تريدين الذهاب إلى غرفتك؟

أدركت "صوفي" أن الهروب من أمام "ناتالي" ليس بالتصرف الصائب خاصة بعد ما حدث. أكدت أنها بخير. مر الغداء في جو كئيب. تحدثت الآنسة "أندريو" قليلا. ربما شعرت بالندم؟

بعد الغداء، دون أن تنتظر القهوة استأذنت بالتوجه إلى غرفتها. أحاط "نوما" "صوفي" بذراعه:

– أنت أيضا تحتاجين إلى الراحة. منذ وقت الاحظ التعب الذي يبدو على وجهك، ألا تشعرين بتعب؟ هل هناك شيء ما؟

مال نحوها وحدق إلى عينيها. هل يشك في هذا الخبر السعيد الذي تدخره له والذي يسبب شحوبها؟ هل هو شديد الملاحظة على غير ما كانت تتوقع؟

كانت العاطفة التي تملأ "صوفي" بعيدة عن أن تجد الكلمات التي تعبر عنها. هل تكشف له في هذه اللحظة عما في نفسها؟ هل حديث "ناتالي" الوقح عن والدها هو الذي يمسك بلسانها؟ والآن وقد أصبحت بمفردها مع "نوما" هل تكشف له عن سبب عبوسها عندما دخل عليهما؟ تذكرت فرحته بالأمس عندما أخبره البروفيسور "أندريو" بأنه سيساعده فلم ترد أن يحدث خلاف بينه وبين ابنة البروفيسور.

اكتفت بأن وضعت جبهتها على كتف زوجها، وأكدت له أن لا شيء يستدعي القلق بشأن صحتها على الرغم مما هو ظاهر.

كانت الساعة الخامسة عندما همت "صوفي" بالخروج فتقابلت مع "ناتالي" في صحن المنزل. ارتعشت شفتاها عندما سمعتها تقول:

– إني مدينة لك بالاعتذار عن الكلمات القاسية التي تفوهت بها قبل الغداء! لا أعرف إذا كنت أخبرت "نوما" بما حدث لكني أستحق أن يوجه لي اللوم.

ولما وقفت "صوفي" أمامها دون أن تجيبها، استطردت الآنسة "أندريو":

– لك كل الحق في أن تلعنيني. ولكن إذا رأيت أن ندمي صادق

فسامحيني.

بدت عيناها السوداوان وقد اغرورقتا بالدموع. تأثرت طبيعة "صوفي" الكريمة وأكدت لها أنها لم تقل شيئا لزوجها. فابتسمت "ناتالي".

– هل تسمحين لي أن أقبلك؟

بدت "ناتالي" صادقة. ووافقت "صوفي" بقلبها الكبير. أضافت الآنسة "اندريو":

– أرى أنك ستخرجين. هل تريدين أن أرافقك؟

أجابتها "صوفي"، على الرغم من رغبتها في أن تكون بمفردها، ولكنها لا تستطيع أن ترفض طلب ابنة البروفيسور:

– طواعية.

صاحت "ناتالي" في فرحة:

بزيارة الحدائق والمسجد الكبير والمتحف. دهشت "صوفي" من برنامج الفتاة الشابة، هل هذه هي المريضة التي اتصلت بطبيب الطوارىء منذ عدة أيام؟

جاءت السيارة، سيارة كرايسلر فاخرة يقودها عربي بشوش يحب أن يعمل مرشدا للأجانب. قاد السيدتين إلى "باد تزيمي". سلكتا طريق "الرباط". استمتعتا بمشاهدة جبل "زرهون" وأخيرا وصلتا إلى الشارع الذي به قبة سيدي "عيسى".

قال السائق الذي لم تختف عنه الابتسامة:

– هذا هو مستشفى سيدي "سعيد". ستريان مئذنة الجامع.

أنشأت هذه المدينة قبيلة من البربر وقد اختاروا هذا المكان لخصوبة أرضه ووفرة مياهه، مما ساعد على وجود أركان كثيرة من الخضرة والحدائق الغنية.

سار التاكسي ببطء تحت أشعة الشمس. عندما فتحت النوافذ كانت الحرارة شديدة وازداد شعور "صوفي" بالإرهاق، على الرغم من ذلك، لم ترد أن تظهر تعبها وقاومت حتى تبدو طبيعية. بشيء من الارتياح قابلت تصريح رفيقتها وهما يمران أمام أحد الفنادق.

– أيها السائق، أنزلنا هنا... وانتظرنا في موقف الانتظار...

سنستريح قليلا.

نزلتا من السيارة ودخلتا الفندق حيث كان هناك بعض النزلاء الملتفين حول حوض السباحة. ورد كثير وخضرة تحيط الطاولات والمقاعد البامبو. إن المكان ساحر. على الرغم من ذلك، شعرت "صوفي" بغثيان حتى إنها اعتذرت لرفيقتها وأسرعت إلى الحمام.

شعرت بأنها قد أخطأت لما قبلت هذه النزهة مع "ناتالي". شيئا فشيئا تبدد تعبها ولكنها كانت شاحبة عندما عادت إلى الطاولة حيث تجلس "ناتالي" وهي تشرب عصير الفواكه في انتظارها.

– أوه... يا إلهي! أنت شاحبة. هل أنت مريضة؟

– لم أهضم الكسكسي الذي تناولناه في الغداء... اكتشفت أن هذا الطبق لا يناسبني مع حرارة الجو.

لكن أزاحت "ناتالي" النظارة الشمسية عن عينيها وحدقت إلى وجهها وقالت:

– ألست حاملا؟

ارتعشت "صوفي"، إنها لا تريد أن تعلن سرها لخطيبة "نوما" السابقة. وبحرارة أجابتها:

– مطلقا.

– على الرغم من ذلك... تبدين...

لم تكمل جملتها نظرت إلى صدر "صوفي" فوجدت أن استنتاجها صحيح. كيف لم تلاحظ هذه العلامة التي لا تخيب؟ وبهدوء ظاهري محاولة أن تسيطر على الاضطراب الذي سببه لها هذا الاكتشاف، استطردت "ناتالي":

– أنا متأكدة أنك تنتظرين حادثا سعيدا.

أجابت "صوفي" بابتسامة مصطنعة:

– في هذه الحالة ليس هناك سواي أنا وزوجي الذي نجهله.

ساد الصمت بينهما. وأرادت "ناتالي" أن تخفي انزعاجها، فكرت: "إذا كانت تنتظر طفلا فهذا يعني أنني فقدت "نوما" إلى الأبد". لقد اعتقدت أنه عندما قبلني في المستشفى ليواسيني، وعندما أحضرني إلى

منزله أنني في طريقي لاستعادته... لم يكن ذلك سوى وهم. لن يترك أبدا تلك التي ستهبه طفلا. لقد ترددت حتى هذا اليوم في استخدام الإكسير الذي أخذته من الساحرة العجوز. لم يعد أمامي وقت للانتظار. يجب أن أتصرف بأسرع ما يمكن. لقد اتخذت قرارها.

كانت الشمس الغاربة تعكس ضوءا رقيقا على أسقف بيوت "مكناس" عندما قررتا العودة. بينما كانتا تطوفان المدينة منذ ساعتين، وجدت "صوفي" أن "ناتالي" لديها ثقافة عميقة عن الحضارة الإسلامية. عرفت أيضا أن مولاي "إسماعيل" أصبح سلطانا سنه ١٦٧٣ واتخذ "مكناس" عاصمة له.

وجد أن قصره صغير جدا ليحتوي على حاشيته، فهدمه وبنى آخر كبيرا راغبا في محاكاة "فرساي" وليسع عائلته الكبيرة. كانت الأيدي العاملة التي استخدمها في بناء هذا القصر من السجناء وعددهم حوالي ٦٠٠٠٠ رجل، وهو عدد خيالي.

كان حريم قصره يتكون من ٥٠٠ امرأة وعنده ٨٠٠ طفل. لذلك، يدعي العديد من المغاربة أنهم ينحدرون من سلالة السلطان. جهز المدينة بالقنوات وبحيرة صناعية. ووضع المؤن في مخازن كبيرة وبنى الحصون ليحمي المدينة من غزوات البربر. فكرت "صوفي": "إنها جميلة جدا وعلى نفس الدرجة مثقفة" واستنتجت أن "نوما" لم يخدع لمجرد رأي البروفيسور أستاذه للزواج بابنته ولكن لابد أنه أعجب أيضا بجمالها وذكائها.

ألا يعقد أحيانا مقارنة بينها وبين "ناتالي"، هذه الفتاة المبهرة؟ هذا السؤال القاسي الذي أفسد نهاية نزهتها. عندما خطت السيدتان عتبة الڤيلا وجدتا أن "نوما" قد وصل بالفعل. أخبر "ناتالي" فرحا:

– لقد اتصل بك أصدقاؤك "ڤيرنيز" لقد سألوا إذا كانت حالتك مطمئنة وإذا كنت تستطعين تحمل بضعة كيلو مترات في السيارة بدون تعب.

فكرت في أنك الحكم الوحيد في هذا الأمر. فقد اقترحوا أن نذهب لتناول العشاء معهم هل تقبلين؟

صفقت "ناتالي":

– بالتأكيد! إني أحب المفاجآت.

– في هذه الحالة اتصلي بهم لتخبريهم بأنك موافقة.

توجهت "ناتالي" إلى المكتب. استدار "نوما" نحو زوجته التي حضرت هذه المحادثة وهي شاردة.

– اذهبي لترتدي ملابسك لكن انتقي بعناية فستانك لأن آل "ڤيرنيز" من المغتربين الأغنياء جدا. أريد أن تراك السيدة "ڤيرنيز" التي تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية بمظهر طيب فإنها تحكم من المرة الأولى، بالإضافة إلى أنها على علاقة وطيدة بآل "أندريو" ولقد قابلت أبي من قبل.

تجمدت "صوفي" في مكانها. هل حكم هذه المجهولة مهم جدا إذن؟ كانت هذه هي المرة الأولى التي يوصيها بهذه التوصية. هل يجد أنها لا تحسن اختيار ملابسها في المناسبات أو أنها غير أنيقة؟ فكرت أيضا في أن من الواضح أن "نوما" قد قابل آل "ڤيرنيز" بالفعل. ربما مع البروفيسور وابنته خلال زيارته الأخيرة لـ"مكناس"، ربما أيضا تناول العشاء معهم في ذلك المساء؟ من يعرف؟ واليوم إذا كان يدعوها فذلك لأن زوجها لم يستطع أن يختلي بـ"ناتالي" ويخبرها بأمر الدعوة.

فكرت في والدها. ألم يخبرها بأنها ستعاني الحياة مع زوج لا ينتمي لعالمها؟ لم تلاحظ ذلك مباشرة؛ إذ كانت تعيش بمفردها مع "نوما" ولكن الآن هو مضطر لتقديمها للناس الذين ينتمون لوسطه وهو يشعر بالقلق. أمام هذا الاستنتاج. اغرورقت عينا "صوفي" بالدموع ولكنها أخفت ألمها وذهبت لترتدي ملابسها. في غرفتها أصابتها الحيرة. ترددت بين عدة فستانين. استقرت أخيرا على فستان رمادي يجده "نوما" جميلا جدا.

كان "نوما" يحلق في الحمام، تقدمت لترى في المرآة- التي تعكس صورتها- نظرة استحسان من زوجها. وعندما لم ينظر إليها، قالت:

– كيف تجدني؟ هل أروق لك؟

التفت:

– أخبرتك بأن ترتدي فستانا مناسبا. سنتناول العشاء في فندق على

مشارف الصحراء وترتدين فستانا لايصلح لحفل في قصر..

– أوه! آسفة.

خفضت "صوفي" رأسها في حيرة. بينما قال "نوما" متنهدا:

– يا طفلتي الصغيرة أنت لا تدركين الفروق.

امتلأت عينا "صوفي" بالدموع. خلعت فستانها وارتدت فستانا بسيطا أزرق غامقا متوافقا مع الجو الكئيب الذي تنتظره في هذا العشاء. وعندما أصبحت جاهزة لحقت بزوجها في انتظار "ناتالي".

أخيرا ظهرت. كانت ترتدي فستانا بلون المرجان له حزام أبيض. وصندل وحقيبة بألوان متناسقة تماما. كانت رائعة ولم تستطع "صوفي" أن تمنع نفسها من المقارنة بين مظهرها البسيط وهذه الفتاة الفاتنة. كانت السيارة واقفة أمام الڤيلا. قالت "صوفي" وهي تجلس في المقعد الخلفي:

– اركبي في المقعد الأمامي ستكونين أفضل!

لم تعترض الآنسة "أندريو" وجلست إلى جوار "نوما".

الفصل الخامس عشر

سارت السيارة في الطريق الذي لايزال يحمل آثار الشمس. عند الخروج من المدينة كانت الشجيرات المجهولة وأشجار النخيل تصطف على الطريق قبل أن يصلوا إلى الصحراء الواسعة.

كانت "صوفي" جالسة في نهاية السيارة لا ترى الكثبان الصفراء والأشجار البسيطة من على جانبي السيارة. كانت تحدق إلى "ناتالي" المستديرة نحو "نوما". كانت تتحدث عن "باريس" وتقول أسماء تجهلها "صوفي" وكان يجيبها مبتسما.

وجهها منعكس على الزجاج الأمامي ولكن منعها صوت المحرك من أن تسمع كل ما تقول. المسكينة منعزلة عن هذا الماضي. إنها تجلس كأنها غريبة.

انتابها حزن شديد. في عدة مرات كانت "ناتالي" تضحك ضحكات منغمة ردا على بعض عبارات "نوما". بالقرب من واحة تحيطها أشجار النخيل كان هناك قصر، أبطأ "نوما" وسلك الطريق المؤدي إلى القلعة الصغيرة، إنه الفندق المقصود. اصطفت السيارات بالخارج.

أسرع العامل الذي يرتدي زيا أحمر به شريط ذهبي ليفتح أبواب السيارة، وعندما نزلوا أشار الدكتور إلى الطريق. فتح باب خشبي كبير أمامهم. كانت القاعة مظلمة إلا أن التراس كان لايزال تحت أشعة الشمس الغاربة. وفي هذا المكان جلس الرواد. كان هناك على الأقل عشرون.

ومن طاولة يشغلها أربعة أشخاص استقبل بالترحاب ظهور "نوما" و"ناتالي". قدم آل "ڤيرنيز" الأصدقاء الذين بصحبتهم. رئيس محكمة "كازابلانكا" وزوجته. كانت "كوليت ڤيرنيز" شقراء جميلة محترمة في حوالي الأربعين، قبلت "ناتالي" بود ظاهر، كما صافحت "صوفي" بلطف أيضا قائلة:

– لقد تأثرت عندما جاء البروفيسور "أندريو" والدكتور إلينا ولم تكوني برفقته لأنك مريضة. إن زوجك لطيف جدا حتى إنني رغبت

WWW.BEWEY.COM

تماما في أن أتعرف إليك.

هكذا قد أصاب تخمين "صوفي". شعرت بصدمة لتأكدها من كذب "نوما". الآن جلس الأشخاص السبعة إلى المائدة.

أضيئت المصابيح الكهربائية، وساد جو لطيف. روى رئيس المحكمة بطريقة شائقة قصتين طريفتين رسمت الابتسامة على شفاه الموجودين. وبقيت "صوفي" خارج دائرتهم، شعرت كأنها تائهة في هذا العالم. كم أصاب والدها في تحليله للبشر عندما حذرها من ارتباطها بـ"نوما".

فكرت أيضا في حميها. كيف سيستقبل زوجة ابنه التي لم تتعود وسطه؟ لأول مرة منذ زواجها شعرت "صوفي" بأنها أخطأت. رأت وجه "ناتالي" الذي سلط عليه ضوء أحد المصابيح. كم هي جميلة! وبثقة بالغة تشترك في الحديث! إنها اجتماعية مثالية تجد الكلمات المناسبة لكل واحد.

بدا العشاء لا نهاية له بالنسبة لـ"صوفي". وأخيرا قدموا القهوة ونهض الجمع لتناول المشروبات بالداخل. إن الليل في إفريقيا بارد. احتمى الرواد الآخرون بالداخل أيضا.

بالداخل اكتشفت "ناتالي" بيانو، رفعت غطاءه، وبدأت أصابعها تلمس مفاتيحه. وتصاعدت النغمات تحت أصابعها تارة قوية وتارة لطيفة وفق رغبتها، في توافق جميل. إنها تعزف مقطوعة لـ"بيتهوفن". وفي صمت جميع الموجودين بالمكان بدأت في عزف مقطوعة قالس حزينة. بقيت "صوفي" صامتة في دهشة. إن إعجابها بهذه العازفة التي اكتشفت مهارتها توا كان بمثابة إنذار.

"كيف استطاع "نوما" أن يفضلني على خطيبته الأولى" نظرت إلى زوجها، كان جالسا في مقعد عال. لم تستطع أن تستشف أي تعبير على ملامحه. كان ساكنا مغمض العينين واهتزاز شفتيه يشير إلى تأثره باللحن. أي الذكريات يستدعيها في هذه اللحظة؟ أي صور يحييها هذا اللحن الحزين؟ هل هو دعوة أم شكوى؟ أدركت "صوفي" الآن... لقد تمزق الشراع... وهذا التوافق الغامض هو الرباط السري بينه وبين خطيبته السابقة.

كانت "ناتالي" تعبر عن عذاب نفسها الممزقة. عندما انتهت من العزف أغدق عليها الجميع بالتصفيق. نهضت الآنسة "أندريو" في هدوء. كانت شاحبة ورأت "صوفي" أن عينيها تبحثان عن "نوما". ولكنه لم يتحرك وبقي متجمدا كالصخرة. بدا كأنه عاد إلى وعيه عندما وضعت "ناتالي" يدها على ذراعه. بدا مرتبكا بأن اكتشف أنه كان شاردا وبعيدا عمن يحيطون به.

انتهت السهرة. قالت السيدة "فيرنيز" في لطف إنها تود رؤية "صوفي" مرة أخرى. وظلوا صامتين في طريق العودة. غرقت "صوفي" في أحلام اليقظة.

عند عودتهم اتجهت "ناتالي" مباشرة إلى غرفتها. اتخذ "نوما" من العمل حجة ليتجه إلى المكتب بينما ذهبت "صوفي" لتنام. كانت تشعر برغبتها في أن تكون بمفردها. هناك عاصفة في نفسها. إن الحزن يعتصر قلبها. لأسفها تبينت أن "نوما" حتى لو لم يلاحظ ذلك مازال منجذبا إلى "ناتالي". فكرت في أن على مدار أربع وعشرين ساعة لم تجد الوقت المناسب لتقول له ما تحمل من أمل واه. والآن لم تعد ترغب حتى في ذلك. ارتعشت، إنها تشعر بالبرودة في أعماقها.

لاذت بسريرها ورفعت الغطاء حتى ذقنها. أغلقت عينيها وراحت في نوم ثقيل. في اليوم التالي، أحضرت "عائشة" الإفطار لـ"صوفي" قابلتها "ناتالي"، وقالت لها:

– من فضلك أسدلي الستائر في غرفتي، إن الشمس تزعجني.

وضعت "عائشة" صينية الطعام على المقعد، وبينما دخلت الغرفة رفعت "ناتالي" غطاء البراد الصيني وسكبت محتوى الزجاجة التي أعطتها لها الساحرة. والآن كانت متأكدة أنها ستتخلص نهائيا من غريمتها. اعتلت شفتيها ابتسامة شريرة عندما خرجت "عائشة" من الغرفة وأخذت الإفطار.

كانت "صوفي" مازالت نائمة عندما وضعت "عائشة" الصينية فوق الطاولة. استنشقت رائحة القهوة مما أصابها بالغثيان. قالت:

– هذا الصباح سأتناول الشاي.

أمسكت "عائشة" براد القهوة لتحمله إلى المطبخ. ولما كانت متأخرة على "علي" لكي تنظف البيت، أسرعت، وبينما تفتح الباب في عجالتها سقط البراد الصيني وتحطم على الأرض. جهل الجميع أن "صوفي" قد أنقذت بمعجزة من المصير التعس الذي كان ينتظرها.

وبعد فترة وجدت "ناتالي" أن "صوفي" مازالت على خير ما يرام، فكرت: "تلك العجوز الماكرة باعتني إكسيرا ليس له فاعلية".

في هذا الصباح استيقظت "صوفي" على صوت تغريد العصافير، كانت الساعة تقترب من السادسة ورأت "نوما" نائما على سريره. نهضت أولا- لأنه كان اليوم الذي يجب أن تذهب فيه إلى المستوصف. وثانيا- لأن النوم قد هرب منها. بعد قليل استيقظ زوجها على صوت الماء المنساب في الحمام.

- هل تستعدين للخروج؟

- أعتقد أن نزهة قبل الذهاب إلى المستشفى ستفيدني.

- هل تريدين ركوب الحصان! لدينا وقت وساكون سعيدا بمرافقتك.

لم ترد أن تكشف له عن سبب رفضها ركوب الحصان وقالت:

- اليوم، لست أريد أن أركب الحصان. ساقوم بجولة في المدينة، أمسك بيدها.

- لنذهب معا إذن.

تأثرت بهذه العناية في الوقت الذي يتمزق فيه قلبها من الألم نظرت إلى زوجها وقالت:

- أنت تحبني إذن؟

بدت عليه الدهشة:

- ماذا تتخيلين أيتها المجنونة الصغيرة؟ آه! فهمت... هل لأن "ناتالي" هنا؟

شعرت بأنه اكتشف ما بها فاحمرت وجنتاها. اكتفت بأن قالت:

- إنها مشرقة جدا... وموسيقية... وبها كل شيء يمكن أن يثير الإعجاب.

- هل تعتقدين إذن أن ليس لديك شيء؟

جذبها إليه. وجدت "صوفي" في قبلته بعض المواساة وزاد ارتياحها عندما قال "نوما":

- سيحضر البروفيسور "أندريو" بعد ثلاثة أيام، وسنكون بمفردنا.

رددت "صوفي" "سنكون بمفردنا" وتابطت ذراع زوجها. ذهبا حتى المستشفى سيرا في الشارع بين البائعين العرب. وصلا إلى المستشفى وبدأ الدكتور "أرموري" عمله.

لحق "نوما" بزوجته في الغرفة التي تنتظر فيها السيدات مع أطفالهن للكشف. بينما كان قد انتهى من الكشف على أحد الأطفال دخلت ممرضة وقالت:

- دكتور... جاء عربي مذعورا، إن زوجته تضع مولودها الثالث وهي تعاني. ربما لا ينقذها سوى عملية. أحيانا كان يتم استدعاء "نوما" في حالات طوارئ في الخارج. بدون تردد خرج تاركا لمساعدته متابعة الاهتمام بالأطفال.

بعد رحيل زوجها، قاومت مدة نصف ساعة محاولة احتمال رائحة المطهرات. مرة أخرى أصيبت بغثيان شديد. أسرعت الممرضة التي كانت موجودة في المكان إليها وقادتها إلى مكتب "نوما". لم تتردد الممرضة في التشخيص وقالت لها مبتسمة:

- الأشهر الثلاثة الأولى هي الأكثر صعوبة. لا يجب أن تواصلي المجيء إلى هنا. يجب أن تستريحي.

كانت الممرضة محقة.

على الرغم من إرادتها القوية فإن حالتها الحالية تحول دون تمكنها من الدخول إلى قاعات المستشفى. عندما تحسنت طلبت "صوفي" تاكسي واتجهت إلى بيتها. كانت الساعة التاسعة والنصف عندما وصلت. كانت نوافذ "ناتالي" مازالت مغلقة. كعادتها تستيقظ الآنسة "أندريو" متأخرة.

فكرت "صوفي" أن قليلا من النوم سيفيدها. لم تر "عائشة" ولا "علي" فقد كانا يرتبان حجرة المعيشة. اتجهت مباشرة إلى غرفتها. أقفلت الشيش وتمددت على السرير.

أفاقت من نعاسها على صوت "ناتالي". لكن مع من تتحدث؟ "نوما"؟ هل عاد بالفعل؟ نظرت إلى ساعة الحائط، كانت الساعة الحادية عشرة. هل نامت كل هذا الوقت؟ نهضت.

في نفس الوقت سمعت "ناتالي" تنطق باسمها في عصبية قلقة، اتجهت نحو النافذة القريبة من صحن البيت. استطاعت أن تسمع من خلالها دون أن يراها أحد، سمعت "نوما" يقول:

– نعم، لقد أدهشتني بتصرفك. ادعيت قصة الزائدة هذه... لكي أضطر إلى الذهاب إليك، لا أستطيع أن أتصور هذه التمثيلية المثيرة للاحتقار.

سمعت "ناتالي" تجيبه:

– هل تشكو أن تكون محبوبا؟

أضافت بصوت منخفض:

– نعم إني أجرؤ على الاعتراف... نعم يا "نوما" لقد أردت لقاءك. هل تعتقد أن مجيئي إلى "المغرب" هدفا آخر؟ زواجك غير المفهوم أصابني بخيبة أمل. لقد أحببتني يا "نوما".. أخذتني بين ذراعيك قبلها، هل تذكر؟

– لا أريد أن أتذكر الماضي.

– هذا الماضي موجود بالفعل، تذكر الأوقات الجميلة التي قضيناها معا.

– "ناتالي" أرجوك.

– قبلني كما فعلت في المستشفى، أحب قبلاتك.

– لقد فقدت صوابك.

استطردت:

– هل من المعقول أن تتخلى عن وظيفتك المرموقة... الموقف من الصعب إصلاحه... لقد جذبتك هذه المتآمرة الصغيرة إلى الشرك. كانت تعرف أنك رجل نقي وستصلح خطاك معها بالزواج!

لم تفقد "صوفي" كلمة واحدة من هذا الحديث، يتنازعها شعور باليأس والاشمئزاز. لقد قبلها "نوما" في المستشفى. إذن إنه لايزال

يحبها. كذلك فإن مرضها كان ذريعة لكي تلقاه. كيف تجرؤ؟ ولكن ما زاد قلقها هو انتظارها لإجابة زوجها. هل سيدافع عنها؟

– "ناتالي" اصمتي. يجب أن تشعري بالخجل وأنت تتحدثين هكذا عن "صوفي". لم أكن لأتزوجها أبدا لو لم تكن فتاة شريفة ومستقيمة.

ولكنها تابعت هجومها:

– إنها بالتأكيد ممثلة بارعة! لا تقل لي إنك تحب هذه التافهة وإنك فخور بتقديمها لأصدقائك. زواج يتم في أسبوعين هذا لا يخفي شيئا... لا أحد أحمق.

– آمرك بأن تسكتي.

كان غضب "نوما" شديدا، لكنها تأوهت واستطردت:

– لا يمكن أن تحبها. فكر في كل ما يفصل بينكما... تذكر أن كلينا كان للآخر... تذكر الأحلام الجميلة التي داعبتنا. ومستقبلك، كيف سينظرون إليك في الجامعة عندما يعرفون أنك تزوجت ابنة معالج ومشعوذ حكم عليه بذلك وفقا لقانون الطب. لن تستطيع أن تصبح ممارسا كبيرا مطلقا.

قاطعها "نوما":

– توقفي. أنت غير محتملة.

لم تسمع "ناتالي" واستمرت:

– هذا العار سيتبعك في كل مكان وأعرف أنك طموح. "نوما" على الرغم من كل شيء، مازلت أحبك! بالأمس أنت شعرت بذلك عندما عزفت من أجلك القالس الحزين. رأيت أن الماضي لم يمت وأنك مازلت تحبني.

صمتت ثم قالت هامسة:

– لا يمكن أن تنسى كل ما كان بيننا! عزيزي.

– لقد محوتك من ذاكرتي.

صاحت:

– هذا مستحيل.

– هذه هي الحقيقة.

– "نوما" أحبك.. لو تعرف كم أحبك! أنت أيضا أحببتني.

– كفى! كفىَ دعيني.

– "نوما" قبلني. ضمني إليك كما في الماضي.

– الآن قد انتهى كل شيء! لقد فات الأوان!

– لا يا عزيزي! لم يفت الأوان. من الممكن إلغاء زواجك بسهولة. إنك لم تتزوجها بكامل إرادتك. يستطيع الجميع أن يشهدوا على ذلك.

عقدت "صوفي" يديها على صدرها، إن كل كلمة كانت تسبب لها جرحا. وفجأة غامت أمام عينيها الرؤية وسقطت على الأرض.

الفصل السادس عشر

عندما فتحت عينيها لم تدرك "صوفي" على الفور ما حدث. ذكرها البلاط البارد والألم الذي تشعر به في جبهتها بسقوطها. الصمت يغلف المكان. عاد إلى ذهنها مشهد "نوما" و"ناتالي" وشعرت بالم في صدرها. ماذا يفعلان الآن؟ هل لبى "نوما" نداءها بالحب؟

إن صوتها المتوسل مازال يرن في أذنيها... واعترافها بالحب يمزقها. وعلى الأخص قولها إن زواجه لن يسمح له بان يكون طبيبا كبيرا.

زوج ابنة مشعوذ! هذه الكلمة القاسية. هكذا بسببها سيتحطم مستقبل الرجل الذي تحب. تذكرت مدى سعادته عندما أخبرها بان البروفيسور "اندريو" سيساعده. نعم سيساعده البروفيسور ولكن إذا لم تصبح "صوفي" زوجته، لقد قالتها "ناتالي" صراحة.

"زواجك يمكن أن يلغى بسهولة... شعرت بالأمس بانك مازلت تحبني... فكر في الأحلام الجميلة التي كانت تداعبنا. ترددت هذه الجمل على ذهن "صوفي" بدون توقف. بآلية توجهت إلى الحمام وفتحت الصنبور وغسلت وجهها. أنعشتها رطوبة الماء ولكن أفكارها لم تهدأ. هذا الطفل الذي تحمله في بطنها بدا لها فجاة كانه سخرية القدر. لن يقوي رابطة زواجهما بل سيكون حائلا دون حرية "نوما".

لن يكون طبيبا كبيرا أبدا. سيبقى في الظلام. خرجت من غرفتها، قابلت "عائشة" التي قالت لها في دهشة.

– أنت هنا يا سيدتي؟ عندما لم يرك سيدي فقد توجه إلى المستشفى.

أرادت أن تلوذ بمكتب "نوما" وفي اللحظة التي كانت تدير فيها مقبض الباب فوجئت بوجود "ناتالي" تتحدث في التليفون.

– نعم.. سينتهي بالرجوع إلي، الآن هو متردد حتى لا يؤلم زوجته إني واثقة بذلك. إنه لم يستطع أن ينكر أنه مازال يحبني. كانت نبرتها نبرة انتصار.

استندت "صوفي" إلى الحائط وقد أحست بالضعف من جديد.

جمعت كل طاقتها وأسرعت إلى غرفتها. أخذت حقيبة السفر ودست بعض أغراضها وحافظة نقودها.

فتحت مكتبها وأخذت ورقة وكتبت:

"نوما" سامحني. لكني تبينت أنني لا أحبك. أنت لست الزوج الذي كنت أتمناه... منذ ثلاثة شهور كنت أبحث دون جدوى عن حجة لكي أعود إلى والدي. أرجو المعذرة إذا كنت سارحل فجأة، لكن الوداع سيتطلب تبريرات لست مستعدة لها أرجو المعذرة مرة أخرى... انسني.. "صوفي".

وضعت الخطاب في ظرف ووضعته بوضوح على الطاولة. لم يستغرق هذا إلا بضع دقائق. في اللحظة التي خرجت فيها من غرفتها سمعت صوت محرك السيارة. إنه "نوما".

شعرت بارتباك شديد. إنها لا تستطيع أن تهرب من الباب، جرت نحو النافذة المطلة على الحديقة. ألقت أولا بالحقيبة وقفزت بعدها. بعد بضع خطوات كانت في الشارع.

فكرة واحدة كانت تسيطر عليها، الرحيل... الرحيل... فكرت في طفلها... كان العناية الإلهية أرادت ألا تحدث زوجها بأمر هذا الطفل.

كان "نوما" كريما، ربما كان خبر هذا الطفل سيمنعه من الحصول على حريته. في المستقبل سيعرف بولادة ابنه أو ابنته. وسيتم انفصالهما رسميا وسيعود إلى حياته ومواصلة مهنته الطبية في مكان مرموق.

فكرت "صوفي" في كل ذلك وهي متجهة إلى الميدان لتركب تاكسي. كانت تعرف أن هناك قطارين في الساعة الثانية بعد الظهر واحد يتجه إلى "كازابلانكا" والآخر إلى "فاس". ستذهب إلى "فاس" حتى لا يستطيع زوجها تقفي أثرها.

بحثت "صوفي" عن سيارة دون جدوى. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ظهرا وفي مثل هذا الوقت تكون الحرارة حارقة. فلا يوجد زبائن؛ ولذلك، تقل السيارات. يجب إذن أن تذهب إلى المحطة سيرا على قدميها. لكن هل ستصل في الموعد المناسب؟ هل ستتجنب أن يلحق بها "نوما"؟ ممسكة بحقيبتها الثقيلة أخذت تجري على الرصيف

الساخن. إنها تتقدم مدفوعة بقوة خفية وفكرة واحدة تدق في رأسها. "لا يجب أن يلحق بي "نوما" إن رحيلي فقط هو الذي سيجلب له السعادة. لا يهم ألمي! عندما يحب الإنسان حقا يحب ألا يتمنى سوى سعادة الطرف الآخر مهما كانت التضحية. يستطيع أن يلغي زواجنا بسهولة ويستعيد حياته مع المرأة التي لم تتوقف عن حبه... الزوجة التي كانت مقدرة له".

في عجالتها لم تضع قبعتها على رأسها ولا النظارة الشمسية فأضرت أشعة الشمس الحارقة عينيها وشعرت كأن رأسها تحيط به هالة من النار. منهكة لم تعد تستطيع الجري، لكنها ظلت تمشي كالإنسان الآلي. أخيرا رأت مبنى المحطة الأبيض.. بعض المسافرين واقفون أمام شباك التذاكر.

أخيرا دخلت المحطة واحتمت من أشعة الشمس الملتهبة وشعرت بأن هناك سحابة أمام عينيها ترقص، فيها نجوم ذهبية غريبة. بدأت الحمى تطن في أذنيها.

على الرغم من أن عينيها كانتا مفتوحتين لكن بدأت الرؤية تتلاشى أمامهما شيئا فشيئا. اصطدمت بشيء لا تراه. اعتقدت أنها سقطت، التقطتها يد جاءت في نجدتها.

لاحظت رجلا عربيا يرتدي البرنس ينادي بصوت عال. إنها زوجة الطبيب: لابد أنه مريض. تعرف عليها. أصابها الخوف. سيخبر هذا الرجل "نوما" بوجودها.

أرادت أن تتحدث وتشرح للعربي أن يوصلها حتى شباك التذاكر... ولكن لم تخرج الكلمات من بين شفتيها الجافتين. فقدت الوعي بكل ما يحيط بها.

الفصل السابع عشر

لم تعد "ناتالي" إلى "فرنسا" مباشرة. إن الكراهية والغيرة تسكنان قلبها. توقفت في "مراكش" ونزلت بفندق "المامونية" وهو فندق معروف في العالم كله بأنه يجمع بين الرفاهية العصرية والسحر الشرقي الغني. في القاعات الكبيرة والصالونات استطاعت أن ترى الموزاييك والحوائط المزينة باللوحات الفنية. باقات الورد متعدد الألوان والأرض الرخامية والنافورات.

حجرتها الواسعة المريحة وحمامها وردي اللون، كل ذلك أسعدها كثيرا. بعد أن أفرغت حقائبها ورتبت ملابسها أخذت حماما وارتدت فستانا أبيض أنيقا ونزلت إلى المطعم. حرصت على أن تحجز طاولة. أوصلها العامل حتى طاولتها. تابعتها نظرات الجالسين الذين كانوا عددا لا بأس به في هذا الوقت. تابعت نظراتهم تلك الفتاة الجميلة التي يكشف فستانها عن ساقين جميلتين. كانت قد رفعت شعرها وزينت أذنيها بقرطين كبيرين بفصوص من اللؤلؤ. كانت عيناها جميلتين تحيط بهما أهداب سوداء كثيفة.

عرفت على الفور مدى تاثير ظهورها في مجموعة الرجال الذين كانوا يحدقون إليها والسيدات اللاتي كن يحسدن جمالها. شعرت بالرضا مما هدأ مؤقتا الجرح الذي مازال ينزف في قلبها.

ليس بعيدا عن طاولتها، جلس رجل في متوسط العمر ينظر إليها باهتمام، بشرته مسمرة ويبدو رياضيا. جبهته عنيدة، عيناه سوداوان، أنفه مستقيم. إنه رجل ذو جاذبية واضحة. لاحظت "ناتالي" اهتمامه بها مما أسعدها.

فكرت: "إنه بالتأكيد من أصل مغربي، إذا استطعت أن أجعله حليفي سيساعدني على الانتصار على "صوفي" لاكمل انتقامي منها. لا يجب أن يرى ابنها الحياة، لو حدث لفقدت "نوما". إنه لن يترك أبدا أم طفله".

طلبت وجبة خفيفة وبعد قليل غادرت المطعم، كان جارها مازال

جالسا إلى طاولته. تلكأت في البهو مقتنعة بانه سيتبعها. بالفعل هذا ما حدث. لمحته في مرآة عالية... إنه يأتي في اتجاهها.

إنه على بعد مترين خلفها عندما تركت حقيبة يدها تسقط وتفتح فتتناثر محتوياتها على الأرض. ما توقعته قد حدث: أسرع الغريب وساعدها على التقاط أغراضها، وبابتسامة ساحرة قالت له:

– أشكرك بشدة.

أجاب بفرنسية تتاثر بلهجته العربية:

– لا عليك.

ثم استطرد:

– هل أنت فرنسية؟

أومأت برأسها:

– باريسية؟

– لقد أصبت.

– متزوجة؟

ابتسمت قائلة:

– ليس بعد.

– مخطوبة إذن؟

– أنت فضولي جدا.

– وأنت جذابة جدا.

ضحكت. مال نحو كتفها فاستنشقت عطر التاباك المنبعث من شعره.

– يبدو أنك جئت إلى "المغرب" للترفيه.

– هذا صحيح.

– ألا تعرفين "مراكش".

– هذا صحيح أيضا.

– هل تسمحين لي أن أكون مرشدك في هذا البلد الذي سيكون لك اكتشافا؟

– أنت تغويني... على الرغم من ذلك، يجب أن أخبرك بأنني لا

أخرج مع الغرباء.

– أنت محقة. كان يجب أن أقدم نفسي "عمر بن يوسف" أسكن على بعد خمسين كيلو مترا من هنا. من الممكن أن تزوري مزرعتي.

هل سيطلب منها أن يقودها إلى مقاطعته في قلب الليل؟ إن "ناتالي" مثيرة ولكنها ليست مجازفة.

شيء من الحذر يقود تصرفاتها. أجابته:

– مرة أخرى ولكن هذا المساء إني أنوي اكتشاف "مراكش" ليلا.

– سهل جدا. الواحة ملهى مختار. اسمحي لي أن أدعوك يا آنسة...

أجابت غير راغبة في أن تخبره باسم عائلتها:

– "ناتالي".

لقد جاء والدها إلى "مراكش" منذ أسبوعين وربما تعرف على عدة شخصيات وقد يكون "عمر بن يوسف" أحدهم.

تبعته حتى باب الفندق. أمر الحارس وبعد قليل جاءت سيارة "كاديلاك" يقودها سائق توقفت أمامهما. التفت "عمر" نحو "ناتالي".

– "الواحة" ليست بعيدة ولكنك ستجدين صعوبة في الذهاب إلى هناك سيرا على قدميك بهذا الكعب العالي.

بعد تردد، ركبت السيارة ولكنها اطمأنت عندما توقفت السيارة أمام مبنى يتلألأ فيه الضوء. لم يخدعها "عمر"، إنه ملهى مختار فعلا، بمجرد أن دخل من الباب أقبل عليه مدير المكان في لقائه. وقال:

– سيدي لدي من أجلك أفضل طاولة.

بالفعل جلسا إلى طاولة في مكان جيد. كان هناك حشد كبير من المغاربة وكثير من الأجانب. الفرقة الموسيقية تعزف موسيقى الديسكو، بعد أن طلب شرابا قال "عمر" لـ"ناتالي":

– هل تريدين الرقص؟

غيرت الفرقة الموسيقية اللحن. وعزفت موسيقى التانجو. اعتلت شفتي "عمر" ابتسامة غامضة وأحاط خصر "ناتالي" بذراعه وجذبها نحوه بشدة. تبينت على الفور أن هذا الرجل يفكر في أن المرأة شيء يمتلك. شعرت "ناتالي" بخوف شديد. دون أن يهتم بالمقدمات همس في

أذنها:

– أنت تروقين لي، أرغبك بشدة...

ازداد فزعها.. تحررت من عناقه وأجابت:

– أنت مخطئ، أنا لست كما تعتقد.

اخترقت طريقها وسط الراقصين. ونجحت في الخروج من الملهى. في الوقت الذي كان فيه التاكسي ينزل زبائنه. دخلت في السيارة وأخبرت السائق باسم الفندق، بعد خمس دقائق وجدت نفسها في بهو الفندق.

مسرعة استقلت المصعد ووجدت نفسها في الطابق الثاني. وفقط في غرفتها استعاد قلبها هدوءه. فكرت: "لقد هربت بمعجزة".

ربما يكون "عمر بن يوسف" مغامرا. باختصار اقتنعت بأنها قد هربت من خطر كبير. على الرغم من ذلك كلما تذكرت القوة والحرارة التي عانقها بها تشعر باضطراب لم تشعر به قط من قبل. نامت نوما متقطعا. وفي لحظات نعاسها كانت لا ترى سوى صورة "عمر".

عندما استيقظت قررت أن تذهب إلى السوق لعنوان توصلت إلى أن تنتزعه من "عائشة" تلك الغبية التي سكبت الشراب الذي كان يجب أن تتناوله "صوفي" في الوقت المناسب. بسبب خطأ هذه الفتاة انقلب كل شيء، ولكنها كانت تأمل أن تستطيع "ليلى" ابنة عم "عائشة" أن تصلح ما أفسدته الثانية.

ألا يجب أن تذهب إلى "مكناس" لترى "عائشة"؟ ستكون "عائشة" في مكانها في منزل "نوما" و"صوفي" لتتصرف. لقد أخبروها أيضا بأن سكان البلد الأصليين لديهم عقاقير أكيدة تجعل المرأة عاقرا. بالتأكيد لا ترغب "ناتالي" أن تقتل غريمتها. ولكن إذا منعت وصول الطفل إلى الحياة.. كانت متأكدة أنه إذا حدث ذلك ستستعيد "نوما".

كانت الساعة التاسعة صباحا عندما خرجت من الفندق والشمس حارقة والحديقة بهية. عبرت الحديقة وهي تتفرج بإعجاب على النافورة وتستنشق عطر الياسمين سالكة طريقا دائريا يؤدي إلى الشارع.

كانت مبكرة، إذ إن العجوز كانت ستستقبلها في الحادية عشرة. قررت إذن أن تقوم بجولة في المدينة التي أسسها "يوسف بن تشفين"

وكان أول سلطان اهتم بتجميل المدينة.

أشارت إلى تاكسي. رأت الحوائط الحمراء العالية لعاصمة "سوس" تمر تحت عينيها كما شاهدت القباب والمآذن، ثم وصلت إلى السوق وسلكت طريقها بين السائحين والسكان الأصليين. تقدمت وفي يدها ورقة صغيرة بخط يد "عائشة"، إنه عنوان ابنة عمها، قدمتها للبائعين عدة مرات ليرشدوها إلى الطريق.

كانت تمشي بسرعة حتى إنها لم تلاحظ ذلك العربي ذا الذقن الطويل الذي يتبع خطواتها. أخيرا وصلت إلى باب منزل "ليلى". كان منزلا منخفضا صغيرا، وكانت المغربية الصغيرة تجلس على حصيرة من القش. بالقرب من سيدة عجوز جدا، إنها جدتها تغزل الصوف. سألتها "ناتالي":

– هل تتحدثين الفرنسية؟

– قليلا.

– إني قادمة من طرف "عائشة" ابنة عمك.

أضاء وجه الفتاة:

– التي في "مكناس" لدى الطبيب؟

– تماما. أنا أخته. ستعطيك جدتك زجاجة بها عقار تصنعه، يساعد السيدات اللاتي لا يرغبن في أطفال.

التفتت الفتاة إلى جدتها ورددت لها الكلمات بالعربية. عقدت هذه الأخيرة حاجبيها ونظرت إلى القادمة الغريبة وقالت بعض العبارات القصيرة التي ترجمتها "ليلى".

– قالت إن هذا باهظ الثمن. هل تستطيعين الدفع؟

– كم تريد؟

سمعت السيدة العجوز حفيدتها وقالت:

– ٢٠٠ دولار.

بدون تردد فتحت "ناتالي" حقيبتها وأخرجت المبلغ المطلوب للمغربية التي أطبقت بأصابعها المرتعشة على العملة الورقية.

قالت "ناتالي":

– أخبري جدتك بأنني ساعطيها مثل هذا المبلغ إذا تركتك تأتين معي.

– معك؟

– سأدفع لك أجر السيارة حتى "مكناس".

تمتمت الصغيرة:

– لن أستطيع أن أذهب إلا الأسبوع القادم.

– أعرف ذلك ولكن إذا ذهبت الآن ومعك الزجاجة التي ستعطيها لـ"عائشة" دون أن تقولي شيئا لأحد. ساعطي ٢٠٠ دولار أخرى لجدتك.

التفتت الفتاة نحو جدتها ورددت عليها كلمات الأجنبية. ابتسمت العجوز ابتسامة عريضة، ونهضت وفتحت صندوقا وأخرجت منه زجاجة. ممسكة بها أخذت تتكلم بسرعة. شرحت الفتاة كلمات جدتها قائلة:

– جدتي تقول إن العقار لك بالتأكيد، لابد أنك ارتكبت حماقة في رحلتك. لقد اعتادت أن الشابات الأوربيات يحببن كثيرا رجال بلادنا الأقوياء.

شعرت "ناتالي" بأنها ستسقط في الشرك، فقالت:

– لقد أصابت جدتك... على الرغم من ذلك يجب أن توصلي الزجاجة إلى ابنة عمك. وهي تتحدث أخرجت العملة الورقية من حقيبتها.

أسرعت "ليلى" داخل المنزل وجمعت بعض الملابس في لفافة خلال خمس دقائق تركت السوق تتبعها نظرات "ناتالي".

الفصل الثامن عشر

وصلت السيدتان إلى محطة الأوتوبيسات دون أن تتبينا أن المغربي ذا اللحية يتبعهما. اشترت السيدة الفرنسية تذكرة ذهاب وعودة إلى "مكناس" وأعطتها للفتاة.

– لم أرد أن أعارض حدتك عندما قلت إن العقار من أجلي. أعطيه لـ"عائشة" وستفعل اللازم. إنه لزوجة الطبيب. لكن احفظي لسانك، لا يجب أن يعرف أحد أن زوجة الطبيب لا تريد أطفالا.

هزت الفتاة رأسها:

– سأحفظ لساني.

أوصتها "ناتالي" بتوصيات أخرى، وعندما لم يبق سوى ربع ساعة على تحرك الأوتوبيس إلى "مكناس" تركتها في صالة الانتظار.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ظهرا، وكانت تشعر بالجوع. كانت سعيدة لأنها استطاعت أن تحقق خطتها بهذه السرعة. إنها تستطيع أن تعتمد على "عائشة".

في مساء اليوم الذي تركت فيه منزل "نوما" فاجأتها وهي تأخذ بعض القطع النقدية من حقيبة سيدتها. هددتها بأن تلقي بها في السجن فقد حازت على ولائها. أشارت إليها بهذا العنوان إلى الكثير من السيدات العجائز العربيات حكيمات وقابلات. إنهن يعرفن سر بعض النباتات التي تؤدي إلى الإجهاض، لن تخذلها الخادمة الصغيرة، إنها مطمئنة لذلك. عادت إلى الفندق وتناولت الغداء بشهية. بعد الغداء ذهبت إلى غرفتها لتستريح بنية أن تنزل حمام السباحة. أرادت أن تكون جميلة بأن تأخذ اللون البرنزي لتعجب "نوما".

تمددت على سريرها ولكن شيئا غريبا حدث، جاءت صورة "عمر" مكان صورة خطيبها السابق. إن في ذلك الرجل شيئا قويا يدعوها للإعجاب الممزوج بالخوف. قالت لنفسها إنه لم يكن من الواجب أن تتركه بهذه السرعة، ندمت على عصبيتها. بدون شك لن يغفر لها سلوكها. لو قابلها مرة أخرى! كم تريد أن تقابله مرة أخرى!

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة بعد الظهر عندما استيقظت. ارتدت مايوه بكيني أخضر يتناسب مع البشكير الذي أحاطته حول جسدها. كان هناك عدة سابحين في الماء وعلى المقاعد، ولكنها اكتشفت مكانا خاليا تحت شمسية. تمددت وأغلقت عينيها معرضة جسدها للشمس.

جاءها صوت من خلفها:

– أنت نائمة إذن يا آنسة "أندريو"؟

فزعت عند سماعها هذا الصوت، صوت تعرف نبراته الجشة. التفتت، إنه "عمر" في ملابس السباحة يبدو كأنه تمثال من البرنز. دهشة.. قالت:

– أنت تعرف اسمي.

ابتسم:

– أعرف والدك أيضا.

رغما عنها صاحت:

– مستحيل.

– لقد نزل عندي عندما حضر آخر مؤتمر طبي له.

أضاف:

– يجب أن أخبرك بأن رؤوس الأموال التي تقدمها عائلتي يبنون بها المستشفيات في هذه المنطقة. إنني لم أخبرك باسمي كاملا. أنا "عمر بن يوسف سالمان".

قالت:

– أنت "سالمان"؟ إنك ثري ومشهور.

قاطعها:

– لقد كنت محظوظا بأن لي أجدادا أتاحوا لي تحقيق الكثير من الأشياء ولكني على الأخص "عالم أحياء".

قالت:

– حدثني أبي عنك...

تذكرت أن البروفيسور "أندريو" ذكر هذا الاسم عدة مرات مضيفا أنه

أمضى ثلاثة أيام في عزبة "يوسف سالمان" عالم الأحياء المشهور، وهو رجل وسيم ومضياف.

كان والدها يعرفه منذ وقت قصير ويقدره بشكل خاص. كانت تسمع أحاديث والدها عنه بدون اهتمام، أما الآن فلقد استعادت كل كلمة منها.

مال نحوها:

– أنت جميلة جدا لكن لا تبقي في الشمس دون أن تغمري نفسك بالماء وإلا سيحترق جلدك.

– أنت محق.

إنها سباحة ماهرة. تبعها، إنه يعوم بأسلوب ممتاز. سبحا طويلا. شعرت "ناتالي" بانها في حالة طيبة. عندما عادا إلى مقعديهما، قال:

– هل تريدين شرابا؟

– أفضل عصير ليمون.

– أنت عاقلة.

كانت "ناتالي" سعيدة لانه لم يشر إلى هروبها البارحة. وأرضى غرورها اهتمامه بها. سألته:

– هل أنت متزوج؟

– ليس بعد.

ألقى برأسه إلى الخلف. إنه مفعم بالرجولة والوسامة فكرت "ناتالي" في أنها لم تر رجلا في مثل جاذبيته. بالتاكيد لقد وجدته بالأمس جذابا لكن في ملابس السباحة ترى قوة عضلاته وتوافق جسده الرياضي، فكرت في أن أي امرأة تتمنى أن تحيطها هاتان الذراعان القويتان، بدوره تأملها من بين أهدابه المسدلة.

– أنت رائعة... هل تمارسين السباحة منذ زمن طويل؟ إنها وسيلة رائعة للحفاظ على قوامك خاصة عندما تتزوجين وترزقين بأطفال.

– إذا تزوجت لن يكون لي أطفال.

كانت إجابتها سريعة مما أدهش "عمر".

– لن تحبي زوجك إذن؟

– لماذا؟ لا علاقة لهذا بذاك.

– هدف الزواج هو إقامة أسرة.

– هذه وجهة نظرك كعربي. في "فرنسا" هناك أسر كثيرة بدون أطفال...

لم تكمل جملتها، لأن النادل قد أحضر لهما طلبهما. انفض السابحون عن حمام السباحة: لقد حانت ساعة العشاء.

التفت "عمر" نحو جارته.

– سأكون سعيدا جدا أن أدعوك إلى العشاء معي يا آنسة "أندريو".

– اسمي "ناتالي" هل نسيت ذلك؟

– على الإطلاق... عزيزتي "ناتالي" هل قبلت دعوتي؟

– بكل سرور.

– سأعرض عليك اقتراحا.

– ما هو؟

– أرغب في أن تتصلي بوالدك وتخبريه بانك قابلتني. وبعد، ستعطينني السماعة لأطلب منه أن أصطحبك إلى مزرعتي.

بينما كانت تنظر إليه في دهشة، أضاف:

– هل تجدين أنني طراز قديم؟

ابتسمت إليه.

– بالأمس لقد كنت مستقيمة تماما...

– لا تذكرني بسلوكي بالأمس...

– إنني مدين لك بالاعتذار. ربما كانت عروقي مشتعلة، لكني رغم كل شيء رجل متحضر.

قالت تاركة مقعدها:

– حسنا سأذهب لأرتدي ملابسي. وبعد نصف ساعة سنتقابل عند السويتش.

– تماما.

صففت شعرها ووضعت الماكياج بعناية.

أرادت أن تكون جميلة. اختارت فستانا مثيرا ذا فتحة جريئة عند

الصدر. كانت تشعر تجاه "عمر" بانجذاب شديد خاصة الآن بعد أن كشف لها عن شخصيته، لم تطمئن فقط من ناحيته ولكن دفعتها طبيعتها المحبة أن تُمتدح، جعلتها ترغب بشدة في أن تعجبه. ها هو يخدع بأهوائها كطفلة مدللة.

الآن أصبح الأمر مختلفا وتبادلت الأدوار. كان "عمر" ينتظرها عند التليفون.

رن جرس التليفون عند والدها الذي رد عليها بعصبية:

– كيف تطيلين رحلتك في "المغرب"؟

أجابته:

– أبي لا أجد ما يواسيني بسبب زواج "نوما"؛ لذلك، فإن السفر لا يجعلني أفكر في أحزاني.

– أين أنت؟

– في "مراكش". نزلت في فندق "المامونية"

– وبالتأكيد لم يعد معك مال!

– اطمئن، مازالت معي شيكات سياحية.

– متى ستقررين العودة إلى "باريس"؟

– قريبا...

– لماذا تتصلين بي إذن إذا كنت لا تحددين تاريخ العودة؟

– لأخبرك بأنني قابلت شخصا تعرفه.

– من؟

– "عمر بن يوسف سالمان".

– غير معقول.

على الفور تحولت نبرة البروفيسور إلى الفرحة وأضاف:

– إنه رجل ممتاز.

– هذا رأيي أيضا. إنه إلى جواري ويريد أن يكلمك.

وأعطته السماعة.

– ألو يا سيدي البروفيسور لقد أسعدني التعرف إلى ابنتك، إنها فاتنة حقا. وأريد أن أدعوها للعشاء في مزرعتي ولكني أريد قبل أي شيء

إذنك بذلك.

– يا صديقي العزيز.. أنا موافق. لقد حدثتك عنها وأعهد بها إليك. أعطني "ناتالي".

من جديد تحدثت إلى والدها:

– "عمر" شخصية محترمة. لا أريدك أن تصدميه بتهور سلوكك لأني حريص على تقديره لي.

– كن مطمئنا يا أبي.

– إذن يا صغيرتي إني أقبلك بشدة في انتظار عودتك.

ملأ هذا الاتصال التليفوني "ناتالي" بالسعادة؛ لأنها كانت تخشى رد فعل والدها وهو يراها تمد إقامتها في "المغرب". بالفعل لم يكن راضيا عن الرحلة البحرية التي قامت بها في الصيف الماضي. عندما بكت عند سماعها خبر زواج "نوما". قال لها إنها كانت المسؤولة لأنه ليس من المعقول أن تترك خطيبها أسابيع لتلهو بعيدا عنه.

سارت السيارة "الرولز" في الريف المظلم. تاركة "مراكش" متجهة إلى "القطوبية" أضاء القمر هذه البانوراما الضخمة... بعد قليل تركت السيارة الطريق الواسع وسلكت طريقا ثانويا تصطفه النخيل. كانت "ناتالي" تجلس على يمين "عمر" معجبة تماما بهذا المشهد الليلي. لم يتبادلا إلا كلمات قليلة.

أخيرا انعطفت السيارة يمينا، سارت في ممر تصفه النباتات المتسلقة ظهر في آخره قصر على الطراز الشرقي. يعلو الباب مصابيح حديدية، يؤدي الباب إلى بهو واسع أرضيته رخامية يغطيها سجاد رائع. نباتات خضراء كثيفة ينبثق من وسطها نافورة صغيرة تأثرت "ناتالي" بهذه الفخامة.

همست:

– كم هو جميل!

أحاط "عمر" خصرها بذراعه. قال وهو يسحبها للداخل إلى صالون مقاعده من القطيفة الصفراء:

– تفضلي.

برزت باقة ورد أحمر من زهرية من الكريستال. إن الطراز الحديث متوافق تماما مع الطراز المغربي. كانت هناك صورة كبيرة لرجل وسيم في وسط الغرفة.

قال "عمر" مشيرا إلى الصورة:

– إنه جدي ولقد أخذ لقب سلطان. ماذا تريدين أن تشربي؟

أجابت:

– لا شيء الآن.

نظر إليها مبتسما:

– إن ملابسك وماكياجك في أبهى صورة وشديد الأناقة، أنا لست على نفس القدر بملابسي هذه. إذا سمحت لي أن أذهب لأبدل ملابسي، لكن يجب أن أقول لك إنني لا أرتدي الملابس الأوربية في البيت وأفضل الملابس الأكثر راحة. أعتقد أن ذلك لن يعجبك.

أزاحت شعرها إلى الخلف وابتسمت:

– أنت في بيتك وهذا طبيعي.

غادر الصالون. عندما أصبحت بمفردها طافت "ناتالي" ببصرها في الحجرة متأملة الأثاث الفاخر. كان هناك دولاب يحتوي على كنوز. بقيت واقفة تنظر في إعجاب إلى قطع المجموعة. فتح الباب ودخل خادم يحمل صينية عليها لوز مشوي، وزيتون محشو مشهيات أخرى. خرج في هدوء كما دخل.

بعد قليل ظهر "عمر" يرتدي بنطلونا أسود وقميصا كان يبدو مثل أمراء الأساطير.

أدار "البيك أب" على ألحان التانجو. اقترب من "ناتالي" وجذبها إليه. استنشقت عطره وهي ثملة.

– لنرقص قليلا قبل العشاء.

تركا الموسيقى تقود خطواتهما في توافق نادر. شعرت "ناتالي" برعشة لذيذة تسري في جسدها؛ لأنها أحست بمدى إعجابه بها. وفجأة أحست بشفتيه على شفتيها. شعرت بأن كل شيء يضطرب بداخلها. وكان هو من كسر هذا السحر.

ابتعد قائلا:

– آسف ولكنك تفقدينني صوابي.

وضعت يدها على كتف "عمر" وابتسمت إليه قائلة:

– لست مضطرا إلى الاعتذار، إنه شيء جميل أن أفقد صوابي معك.

لم تقل شيئا آخر فقد دخل أحد الخدم وأعلن أن العشاء جاهز. اتجها إلى رواق خارجي يشرف على الريف النائم. المصابيح تضيء الحديقة.

لقد قال البروفيسور "أندريو" إن هذه المزرعة تشبه الحلم، وإنه على صواب.

قدم العشاء على مفرش مطرز جميل وأدوات الطعام كانت متميزة تماما. لم تر "ناتالي" مثل هذه الفخامة، وقفت خادمتان طويلتان تناولانهما الطعام؛ مما جعلهما لا يتحدثان إلا في أمور تافهة.

كان العشاء لذيذا وعلى الرغم من ذلك، كانت "ناتالي" مضطربة جدا حتى إنها لم تشعر تماما بلذته. تأملته "ناتالي" جالسا أمامها. يبدو بعيدا، حصينا كأنه يرتدي قناعا من الرخام، وعلى الرغم من ذلك، كانت تعرف أن هناك عاطفة ملتهبة ستتحرك بداخله قريبا عندما يصبحان بمفردهما ويضمها إلى صدره.

لم تكن تشك في النهاية السعيدة لهذه السهرة. أخيرا انتهى العشاء. نهض "عمر" قادها إلى الطرف الآخر من الرواق اكتشفت ديكورا إنجليزيا تماما، لكن قبل أن تدخل تراجعت إلى الوراء، ظنت أنها تحلم.

إنها "ليلى" ابنة عم "عائشة" تقف وسط الحجرة وعندما وقفت متسمرة في مكانها قال "عمر":

– لم تنتظري وجود تلك الفتاة الصغيرة. إن عاملي الذي كان يتبعك استطاع أن يمنعها قبل أن تصعد إلى الأوتوبيس المتجه إلى "مكناس".

تمتمت "ناتالي":

– أنا لا أفهم.. لا أعرف هذه الفتاة.

استطرد بنبرة ساخرة:

– على الرغم من ذلك تعرفك الفتاة كما أنها اعترفت لي بكل شيء. كان عليها أن تنقل عقارا صنعته جدتها إلى ابنة عمها، هذا العقار لكي

بجهض زوجة خطيبك السابق التي تنتظر طفلا. لا تنكري يا "ناتالي" لقد روت لي "ليلى" كل شيء.

بينما كان يتحدث انفجرت الفتاة الصغيرة في الدموع. ونظرت إلى "ناتالي".

– سامحيني يا سيدتي... كان يجب أن أقول الحقيقة وإلا القى بي سيدي إلى السجن..

توقفت عن الكلام مختنقة بالدموع. اقترب "عمر" منها.

– لا تبكي. سأقودك إلى جدتك لكن أخبريها بأنها إذا عادت هذه الشريرة إلى مهنة إجهاض السيدات سألقي بها في السجن مرة أخرى. هيا اذهبي.

دون أن تتكلم خرجت الفتاة الصغيرة. أغلقت "ناتالي" عينيها. أرادت أن تموت من شدة الخجل عندما استطرد "عمر":

– لقد أعمتك الغيرة. لم تكوني بصدد قتل الجنين فقط بل لك أن تعلمي أن الأعشاب التي تستخدمها هذه الساحرة الشريرة سموم خطيرة أيضا على حياة الأم. وسيدة من بين ثلاث سيدات تفقد حياتها بسببها. "ناتالي" هل أردت حقا أن تكوني مجرمة؟

– أقسم لك إنني لم أرد أن أقتلها... أردت فقط ألا يأتي الطفل إلى الحياة؛ لأن "نوما" لن يترك مطلقا أم طفله... وهذه المرأة سرقته مني... أردت أن أستعيد منها خطيبي.

– الذي لا تحبينه...

– كيف تجرؤ على الجزم بأنني لا أحبه.

– حدثني والدك عن المشكلات التي أحدثتها له. قال لي إنك حتى قد رحلت في رحلة بحرية قبل زواجك بثلاثة شهور. ولقد استسلمت لمغازلة مغامر شاب وجميل. هل هذه تصرفات فتاة تحب خطيبها؟

شحبت "ناتالي" لمواجهته لها بالحقيقة. استطرد:

– آنسة "أندريو" لقد دللك والدك كثيرا، لقد وهب حياته لك بعد وفاة زوجته واستسلم لأهوائك. لذلك، سقطت فريسة للنرجسية. تريدين الاستحواذ على كل ما هو جيد بدون التفكير فيما هو سيئ.

باختصار أنت مخطئة.

أمسك برسغيها:

– هناك سيدات يجب ضربهن وأنت منهن.

جرؤت على أن تنظر إليه وقد غطت الدموع وجهها:

– أنت تحتقرني، أليس كذلك؟

– كلية!

دخلت هذه الكلمة إلى قلبها كأنها سكين. استطردت:

– إني أثير فزعك.

– لا، بل إني أشعر بالشفقة تجاهك وأريد أن أنقذك.

– تنقذني؟

– بمساعدتك بعدم القيام بمثل هذه الأفعال الإجرامية، لأنك قادرة على ذلك، كما أنني أخذت قرارا.

– ما هو؟

– لن تعودي إلى "مراكش" لأن شيطانك قد يقودك إلى أن ترتكبي حماقة أخرى. سأحميك من نفسك. سأحبسك هنا.

فزعت قائلة:

– تريد أن تختطفني؟

– يا لها من كلمة شريرة! ستكونين ضيفتي. ستتصلين بوالدك لتقولي له إنك ستكونين ضيفتي مدة أسبوعين. إذا لم يعجبك ذلك سأقودك غدا إلى المطار لتستقلي أول طائرة إلى "فرنسا". فكري...

بقيت محتارة أمام هذه الفكرة بأن تعيش تحت سقف واحد مع الرجل الذي حرك في نفس الوقت قلبها وحواسها. قالت:

– أشكرك على دعوتك الكريمة... والتي أقبلها طواعية...

– في هذه الحالة سأطلعك على حجرتك.

عبرت صالونا آخر ووجدت نفسها في غرفة فسيحة ستائرها ملونة بألوان متناسقة مع المقاعد. وملاءات السرير. جلست في أحد المقاعد ولمحت حقائبها. قالت:

– إنها حقائبي.

– أعرف طريق "المامونية" ولم أجد صعوبة في إرسال من يحضرها.

انفرجت أساريره. سألته:

– ألم تعد غاضبا مني؟

– أنا لست غاضبا منك ولكني مقتنع بأنك تستحقين عقابا، ولكني أعرف أيضا منذ المرة الأولى التي شاهدتك فيها أنك فاتنة ومازلت أرغبك.

احتضنها بشدة. شعرت بأن قواها تنهار وكل شيء يدور حولها. ثم ابتعد عنها.

– "عمر" أنا أيضا أرغبك. دعني أعرف الحب الذي أجهله.

نظر إليها بدون حنان وقال:

– في الحقيقة يا آنسة "أندريو" أنت بدون مشاعر...

تلقت الإجابة كأنها صفعة. أصبح وجهها شديد الاحمرار.

– إني أكرهك... سأقول لوالدي...

قاطع جملتها:

– ماذا تريدين أن تقولي له... إنك أردت إجهاض زوجة خطيبك السابق؟ لست أدري كيف سيستقبل ذلك؟

نظر إليها ساخرا واتجه نحو الباب. خطت خطوة تجاهه، لم ترده أن يتركها، هكذا قالت:

– لقد كذبت عليّ عندما قلت إنك ترغبني.

– إطلاقا.

– في الواقع أعرف أن أسيطر على نفسي. لتعلمي يا آنسة "أندريو" أنك ضيفتي وأنني سأحترمك. إذا أردت شيئا لدي خادمة عجوز مخلصة تدعى "تينا". إنها على استعداد لتلبية كل طلباتك ليلا أو نهارا. ولديك التليفون يمكنك الاتصال بوالدك في "باريس" مباشرة. كلمة أخرى، خلال أسبوع لن تريني، يجب أن أذهب إلى "كازابلانكا"... طابت ليلتك يا آنسة "أندريو"... وأريحي ضميرك.

انحنى وخرج. وعندما أغلق الباب انهارت "ناتالي" على السرير وانخرطت في البكاء. كما أخبرها "عمر" لقد تغيب أسبوعا. كان

الخدم كثيرين ومستعدين لتلبية أقل طلباتها. ذات يوم عندما طلبت الذهاب إلى "مراكش" أخبرها السائق بأن "الرولز" ليست مستعدة للسفر وأن السيد قد أخذ السيارة المرسيدس..

أدركت أنه قد أعطى أوامره لموظفيه حتى لا تغادر المزرعة. في ساعات وحدتها كانت تفكر في "عمر" تستنتج أنه لا يحمل تجاهها أي مشاعر. كانت تتألم بشدة من احتقاره لها؛ لأن إعجابها به ورغبتها فيه كانت تزداد أكثر فأكثر كلما مرت الأيام. لهذه اللحظة لم يبق رجل رابط الجأش أمام جمالها.

عندما اتصلت بوالدها لتخبره بدعوة "عمر" لها أجابها:

– أنا سعيد جدا من أجلك، إني أفضل أن تكوني في بيته عن أن تبقي بمفردك في الفندق وسط مجموعة من الأجانب قد يسوقونك. الله أعلم إلى ماذا؟

كان مساء اليوم السادس عندما عاد "عمر" فجأة. كانت في صحن المنزل تشاهد التليفزيون عندما ظهر أمامها. ابتسمت إليه. قال وهو يبتسم:

– لقد نفد صبري للعودة إليك.

برفق أحاطت ذراعه كتفيها وطبع قبلة رقيقة على جبهتها. شعرت بعرفان شديد تجاهه. استطرد:

– لقد فكرت فيك كثيرا. تعالي إلى مكتبي أريد أن أحدثك في أمر جاد.

تبعته وعندما أغلق الباب عليهما قال:

– الشعور الذي توحين إليّ به لم يتغير، إنك تروقين لي أكثر من أي امرأة أخرى... ما شعورك تجاهي؟

– أنت تخيفني... أنت تجذبني إليك.

– في الليلة الماضية كنت أتحرق شوقا لكي أبقيك حبيسة بين ذراعي، لكني أعرف أن رجالا آخرين قد احتضنوك فلا أريد أن أكون عشيقك.

كانت كلمات "عمر" لغزا محيرا لها:

– باختصار– إذا كنت فهمت– أنت تقول إنك ترغبني وفي نفس

الوقت تلفظني... ما اللعبة التي تلعبها إذن؟

– لعبة شرعية بما أني أطلب منك أن تتزوجيني.

بقيت صامتة فقال:

– أعرف أنني أخاطر بطلبي هذا. أنت مدللة، وهوائية وفي نقاط كثيرة لنا وجهات نظر مختلفة.

كانت ستطير من السعادة وفي نفس الوقت حائرة. سألته:

– ماذا تقصد بوجهات نظر مختلفة؟

– بالنسبة لي، إذا كان الحب شعورا ساميا فلا يجب أن ننسى أنه أيضا معركة بين كائنين حيث تمتزج القوة والحنان. حتى يكون هذا الارتباط كاملا يجب أن يحدث بدون حساب، وأن يكون بعيدا عن التصنع. الحب الحقيقي لا يبلغ الكمال إلا في امتداده. كل عمل في الوجود له نفس الهدف: المحافظة على النوع. الزارع يبذر الحبوب في الحقل حتى تنمو. إذا قبلت الزواج بي أرفض أن يكون ارتباطا عقيما. أريد أن تمنحيني على الأقل أربعة أطفال. بالتأكيد سيتغير جسدك الجميل لأن المرأة تنجب لسعادتها ولكنها تتألم أيضا. ستكونين أقرب لي عندما تصرخين وأنت تضعين، وبما أني طبيب سأساعدك على وضع طفلك... أرجو المعذرة إذا كنت أذكر لك اللون القاتم من المستقبل الذي أعرضه عليك، لكني أريد أن أكون صريحا معك. بالتأكيد سأغدق عليك بالورد؛ لأني أحبك ولكن للورد أشواك أيضا. لن أكون أمينا إذا أخفيتها عنك، فكري في هدوء قبل أن تجيبيني.

سمعته وقلبها يدق بشدة. موجات غريبة تسري في جسدها. الكلمات التي نطق بها خلقت في نفسها حالة أخرى. تصورت نفسها أما تحمل طفلا.

بدت لها الجريمة التي أرادت أن ترتكبها في حق طفل "صوفي" لا تغتفر. أرادت أن تركع على ركبتيها أمامها، وتطلب منها العفو. ارتعشت بشدة من فرط تأثرها.

بصوت منخفض، قالت:

– لقد فكرت... إني أحبك.

ابتسم إليها منتصرا:

– هل هذا صحيح؟

أومأت برأسها معلنة موافقتها:

– إني أحبك بالقدر الذي يجعلني أتمنى أن أنجب لك أطفالا... هل ذلك يدهشك؟

احتضنها بقوة:

– لا يا عزيزتي لست مندهشا، أعرف أنك متقدة، لديك رغبة ملحة في أن تشعري بأن هناك من يحبك. وسأجعلك تعرفين جنة كنت تجهلينها حتى الآن. ومن ناحية أخرى، احتراما للتقاليد القديمة لقد اتصلت بوالدك وطلبت منه يدك.

– بماذا أجاب؟

– قبل في سعادة وسيأتي إلى هنا يوم الخميس. لقد جهزت كل شيء للإسراع بإجراءات زواجنا.

قالت:

– خمسة أيام في انتظارك، هذا ليس معقولا... لن أنتظر أكثر.

بهدوء ابتعد عنها.

– بالنسبة لي أيضا يا "ناتالي"... لكني لن أتسرع: أم أطفالي لا يجب أن تكون عشيقتي، إن السعادة تستحق ذلك.

وكأنه ينهي كلامه، ارتفع صوت الأذان يعلن لصلاة العشاء.

الفصل التاسع عشر

عندما فتحت "صوفي" عينيها شعرت بأنها عائدة من عالم بعيد. في البداية لم تر سوى الحائط أمامها. عندما حركت رأسها بخفة اكتشفت على الأرض عند سريرها أشعة الشمس التي تسللت عبر فتحات الشيش. هذه الغرفة غريبة عنها. أين هي؟ حاولت- دون جدوى- أن تفسر هذا الشيء غير المفهوم. شعرت أن كل شيء يبدأ منذ هذه اللحظة.

فتح الباب بهدوء وظهرت امرأة سمراء من سكان البلد الأصليين على رأسها بونيه أبيض. أغلقت "صوفي" عينيها. قفل الباب بهدوء، تلت هذه الصورة صور أخرى مقطعة وأخذت ترتب الواحدة تلو الأخرى كأنه شريط فيلم. تجمعت أفكارها. لقد تلقت "صوفي" صدمة مؤلمة حتى إنها ندمت على أنها لم تفقد الذاكرة. جاء اسم على شفتيها:

- نوما"!

واسم آخر جعلها ترتعش "ناتالي".

اعتقدت أنها تسمع من جديد الحادثة التي دارت بين "نوما" و"ناتالي"... ثم تذكرت هروبها... المحطة والرجل العربي لحظة فقدانها لوعيها... وصيحة الرجل.

"إنها سيدتي زوجة دكتور المستشفى". لقد تعرف الرجل إليها. "نوما"... سيأتي... لا يجب أن يجدها... إنها في المستشفى.

في نفس اللحظة فتح الباب. تقدم "نوما" في الغرفة. أرادت أن تتكلم ولكنه أحاطها بذراعيه وطبع قبلة على جبهتها.

- يا صغيرتي! يا عزيزتي! يا صغيرتي المجنونة!

تمتمت:

- "نوما"... "نوما".

قال لها معاتبا في لطف:

- كيف استطعت أن تفعلي بي ذلك؟ ماذا تصورت؟ هل تخيلت مدى قلقي؟

كان القلق مازال واضحا على وجه "نوما".

تمتمت:

- سامحني.

استطرد:

- كيف رحلت هكذا يا حبيبتي؟ هربت تحت الشمس مخاطرة بأن تصابي بضربة شمس.

همست:

- منذ متى وأنا هنا؟

- منذ ليلتين لم أتركك فيهما. والحمد لله لقد نجوت.

كان عطفه شديدا وصوته ينم عن حنان بالغ. متأثرة وغير قادرة على الكلام بكت في رفق ساندة رأسها إلى كتفه. وعندما هدأت قليلا، قال:

- عندما ذهبت لآخذك من المستشفى. أخبرتني عن سبب تعبك. طفلها، كيف استطاعت أن تنسى؟

صاحت:

- طفلي... هل فقدته؟

قرأ القلق في عينيها:

- لا يا حبيبتي، ولكن تهورك كان سيسبب ذلك.

عقدت يديها على صدرها وقالت:

- الحمد لله.

مال "نوما" نحوها وأحاط وجهها بيديه:

- لماذا لم تخبريني بشيء؟ ألم تريديني أن أشاركك فرحتك؟

نظرت إليه مبتسمة:

- أنت طبيب ولم تلاحظ شيئا؟

- هل تعتقدين أنني أعمى؟ كنت أشك في حالتك دون أن أكون متأكدا.

- حقا؟

- قد يحدث تغير الطقس تغييرات على الجسم.

ربت على خدها:

– في كل يوم تبدين لي أكثر ازدهارا وأكثر جمالا...

– لماذا لم تقل لي شيئا؟

– لم أرد أن أحدثك عن ذلك حتى لا تتوهمي إذا كنت قد أخطأت التشخيص.

– أنت سعيد إذن؟

– بدون شك.

على الرغم من تأكيده هذا عبس وجه "صوفي":

– أنت لا تستطيع أن تكون سعيدا معي.

في لمحة أدرك سر يأس "صوفي". قال رافعا رأسها:

– انظري إليّ.

– لماذا؟

– أريد أن أعرف.

– ماذا؟

– هل سمعت حديث "ناتالي"؟

حاولت أن تكذب.

– أي حديث؟

– عندما حاولت... عندما أرادت أن ننفصل...

– أنا لست من وسطك... إنني عائق في حياتك المهنية.

اعترض في غضب:

– أنت مجنونة.

– والدها البروفيسور الكبير يستطيع أن يساعدك.

قال:

– لن أسامح "ناتالي" أبدا. هل سمعت حديثنا؟

أدرك عندما نظر في عيني "صوفي" أنه أصاب التخمين.

– يا طفلتي المسكينة.

سالت الدموع على خدي "صوفي".

– "صوفي" يا حبيبتي ماذا أفعل حتى تنسي ذلك.

قالت:

– لن يسامحوك لأنك تزوجتني بسبب والدي. سيتأثر مستقبلك المهني.

– كيف تعتقدين ذلك.

– إنها حقيقة واضحة.

– هذا ليس صحيحا، إني أحتفظ لك بمفاجأة.

– أي مفاجأة؟

– أريد أن يضع والدك مواهبه بشكل رسمي في خدمة المرضى.

أجابت:

– هذا حلم نبيل.. لكن هيهات.

استطرد:

– لقد تحدثت عنه مع إحدى الشخصيات الطبية الكبيرة.

– لا أجرؤ على تصديقك...

– يجب أن تصدقيني. إنه طبيب من "سان فرانسيسكو" يمر بـ"المغرب" إنه البروفيسور "آسكينج" ويريد أن يقابله.

استمعت إليه وقلبها يخفق بشدة:

– وماذا إذن؟

– الكثير من السكان الأصليين لا يثقون بالطب الحديث، ويلجأون إلى العلاج بالأعشاب. والدك ممتاز في هذا المجال الذي يحقق في أغلب الأحيان نتائج مذهلة.

– لقد جرح بعمق من عداء الأطباء، ولن يقبل.

– لقد كتبت له بالفعل.

– هل كتبت لأبي؟

– نعم خطابا مستعجلا.

هزت رأسها في حزن:

– لن يجيبك بالتأكيد.

– أنت مخطئة.

نظرت إليه دهشة:

– ماذا؟ هل أجابك؟
– لقد اتصل بي.
– ماذا قال لك؟
– إنه مستعد للحضور لمقابلة البروفيسور "آسكينج".
– يا إلهي! هل هذا معقول؟
نظرت إليه غير مصدقة، إنها لا تجرؤ على تصديق الحقيقة.
– سيكون هنا الأسبوع القادم.
– كم أنا سعيدة.
– كنت قد قررت ألا أقول لك شيئا قبل مجيئه.
أومأت برأسها:
– كنت تريد أن تخفي عني سرا؟
ابتسم بمكر:
– كما فعلت أنت.
سألت "صوفي" نفسها إذا كانت تتابع رواية سعيدة. لقد صالح "نوما" والدها، ليس ذلك فقط، بل إنه يساعده حتى يمارس مهنته التي يحبها. أخذت يد زوجها ووضعتها على شفتيها.
– يا حبيبي لو تعرف كم هي لطيفة كلماتك.
ومن جديد اغرورقت عيناها بالدموع– خلال ابتسامتها– كأنها نقط مطر منعشة بين شعاع الشمس. قالت:
– أترى يا "نوما"، على الرغم من السحب التي اعتقدت أنها تهدد سعادتي... لم يكن من الواجب أن أشك فيك لأني منذ الدقيقة الأولى... أدركت حبك.

تمّت بعون الله